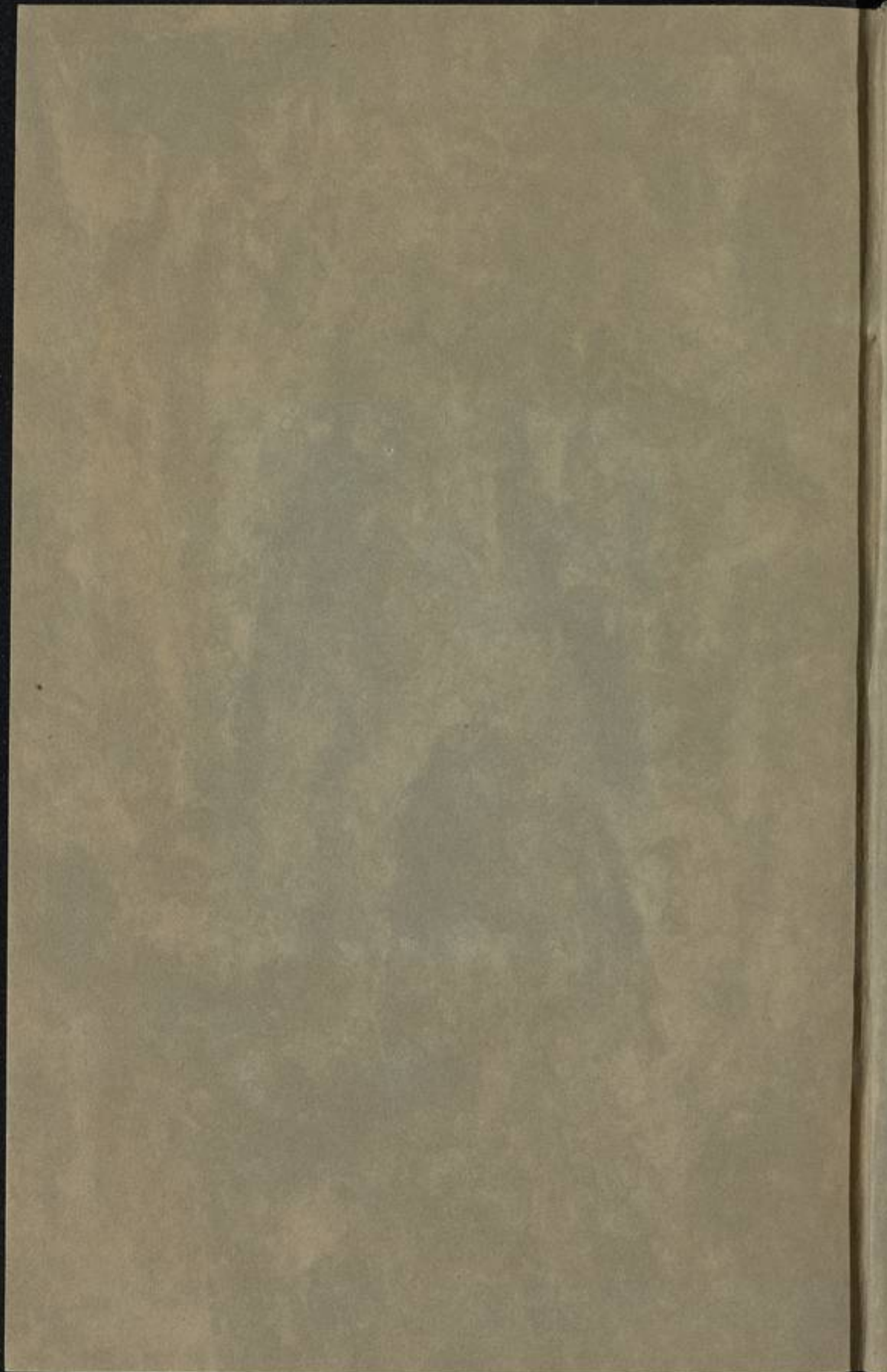


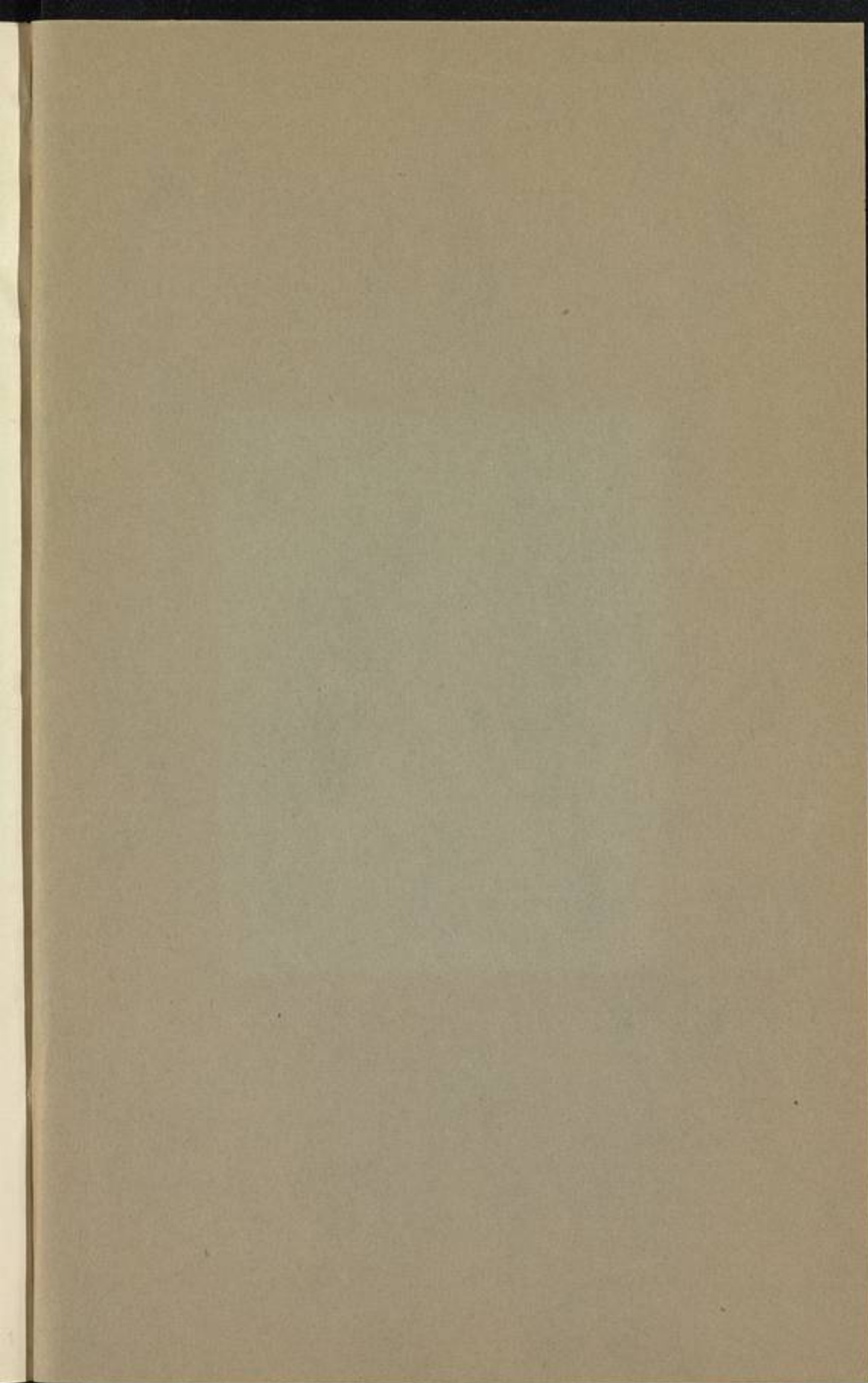


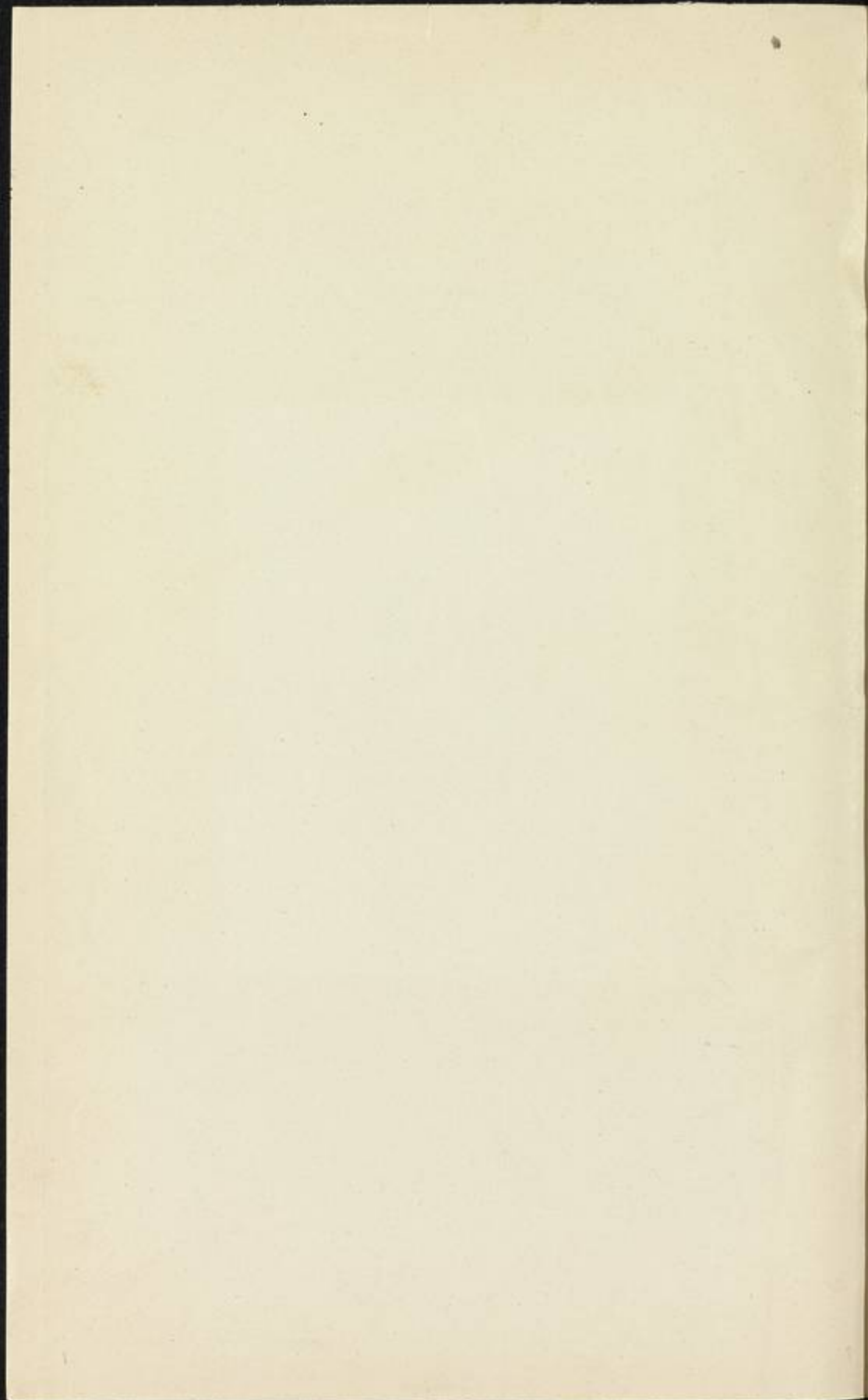
THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY

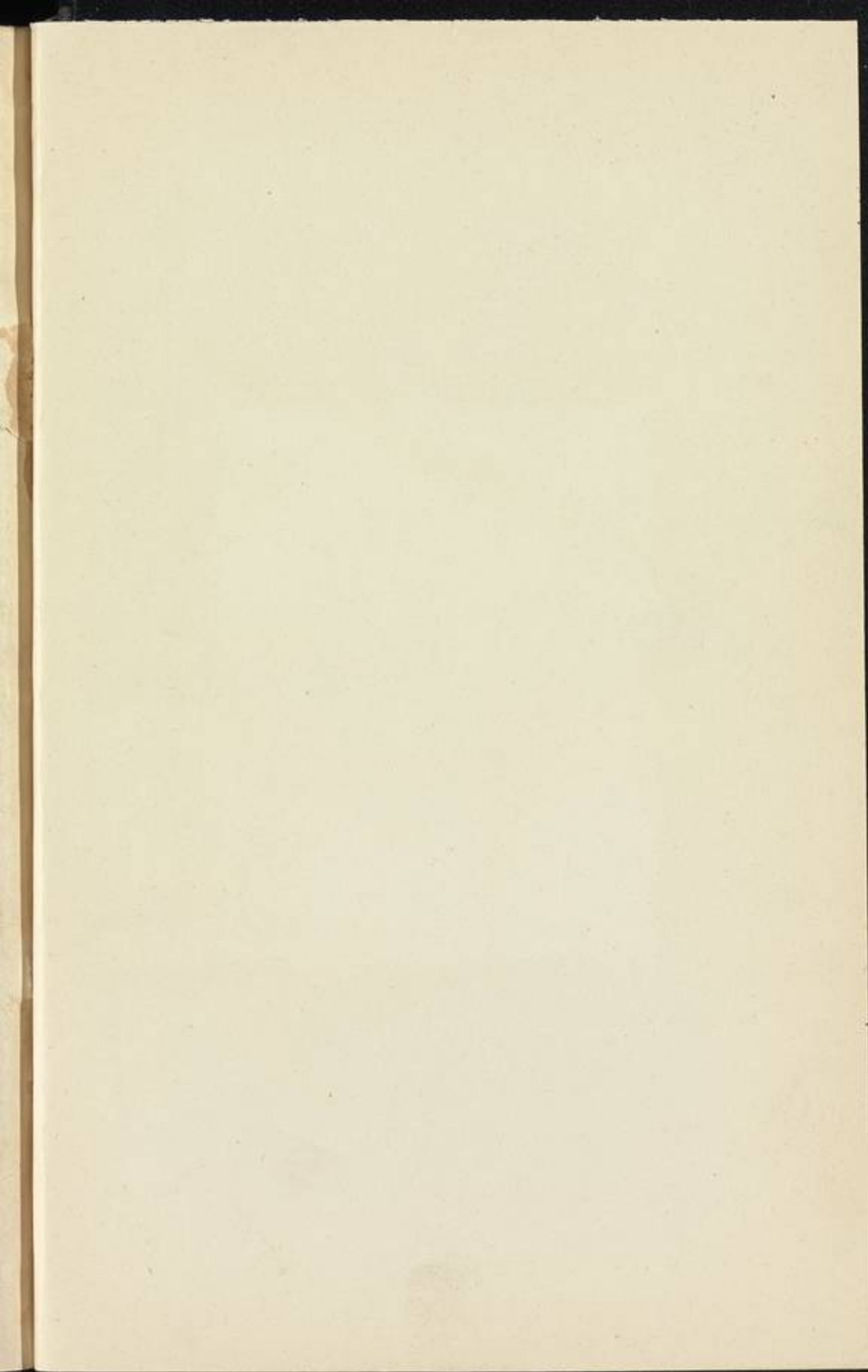


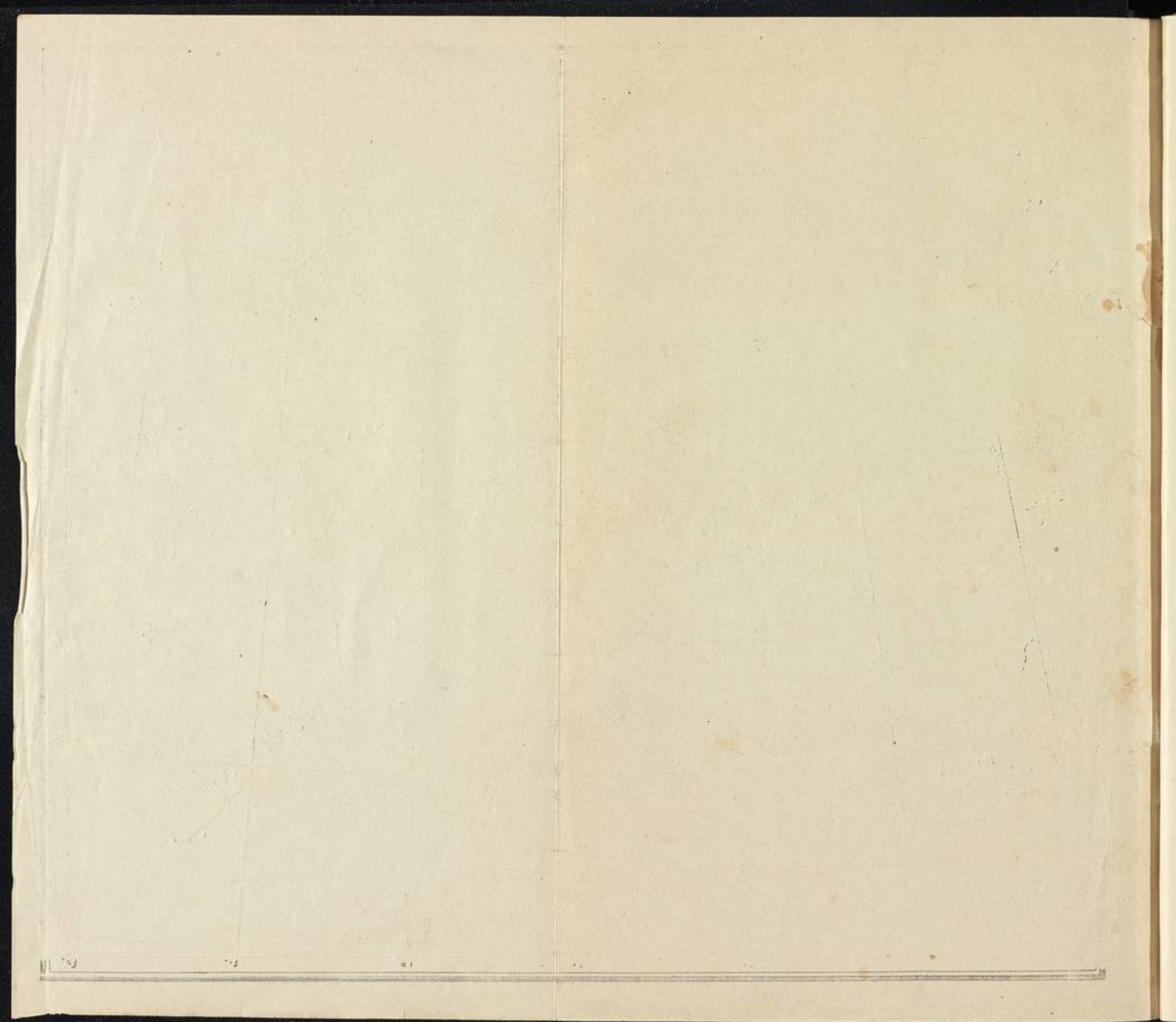
GENERAL LIBRARY











خريطة تاريخية  
 للأفلاق العثمانية في القرن السابع عشر  
 عينة من المتاحف  
 علمت بمعرفة حسين بيد المدرس بمدرسة القضاء  
 الشرعي بمصر





تاريخ

المسألة الشرقية

تأليف

مصطفى لبيب

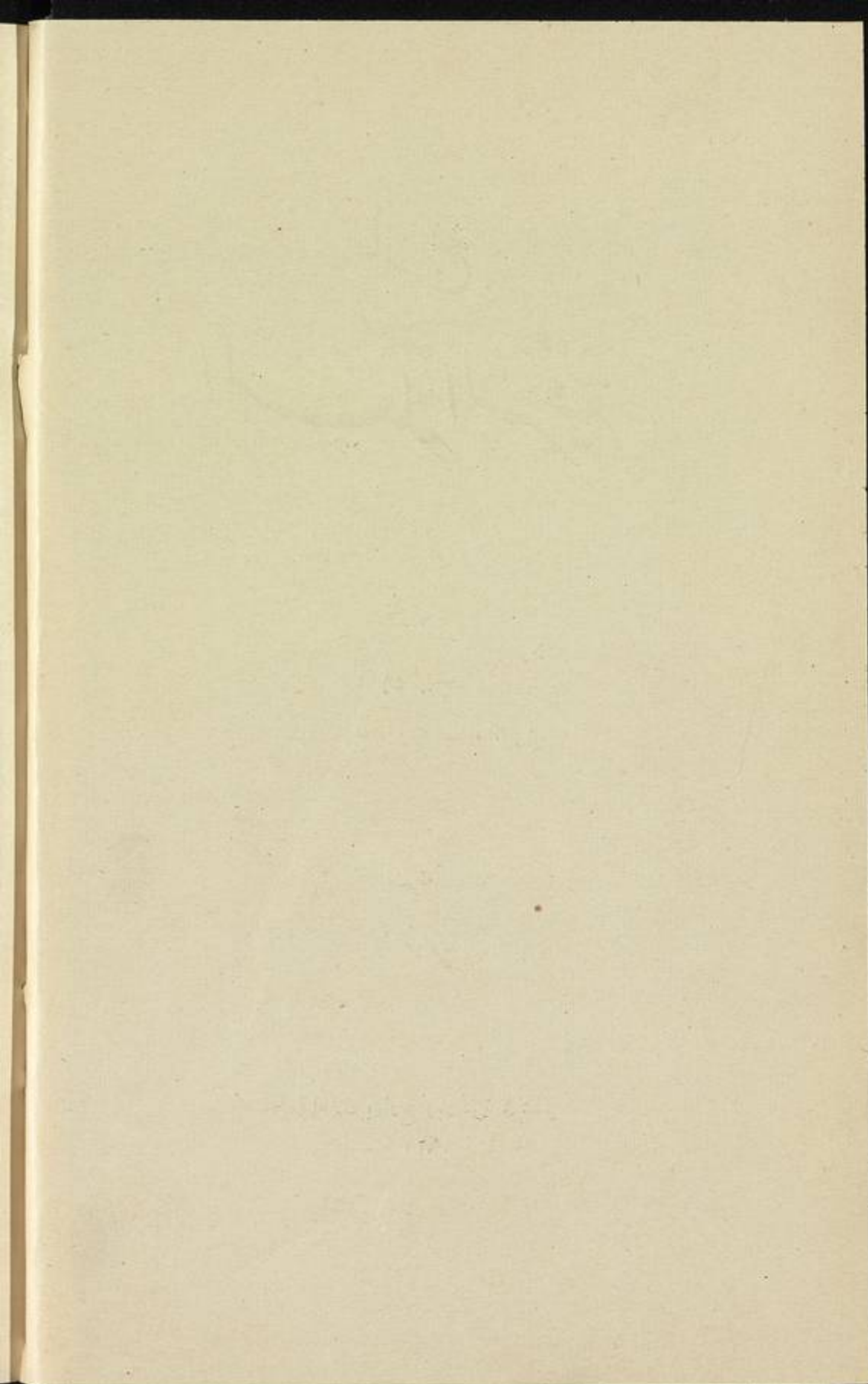
أستاذ التاريخ بمدرسة القضاء الشرعي

نشرته

مجلة الهلال

مطبعة الهلال بشارع نوبار عمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١



## مقدمة

شغلت مسائل الشرق الادنى اذهان الساسة وقراء الصحف واقلق  
محيي السلام ما شجر من اخلاف بين الترك واليونان مما دعا الفريقين الى  
امتساق الحسام وبعثت المسئلة الشرقية من مرقدتها فكان لا بد من  
كتاب يجمع بين دفتيه - ولو بهيئة مختصرة - تاريخ تطور تلك المشككة  
الدولية الهامة من بدء نشأتها الى تاريخ تحرير هذه الاسطر وهذا  
ما نرجو ان نكون وفقنا اليه بمرض الصحف القليلة القادمة بين أيدي  
القراء الكرام

يونيو سنة ١٩٢١

D  
371  
L3

# كلمة عامة

في المسئلة الشرقية (١)

ما هي المسئلة الشرقية

« إذا ذكروا المسئلة الشرقية ارادوا بها حال المملكة العثمانية بالنظر الى مصالحهم او مطالبهم وقد يريدون بها الدردنيل خاصة وهو قلب المملكة العثمانية . وقد مضى قرنان وهم يخلقون الاسباب لتمزيقها - ليس لانها اسلامية وهم مسيحيون وانما يريدون الفتح والتغلب على دولة غربية عنهم لمة وخلقاً ودينياً وهم يرون فرقاً عظيماً بين الغرب والشرق من كل وجه . فالغرب عنوان النشاط والحياة والعمل والشرق عنوان الهدوء والسكون والفاصل بين الامتين بحر الدردنيل ويعتقدون ان تلك الدولة تجاوزت الشيخوخة وان انحلالها فكل دولة تطلب حقها من تلك الغنيمة ويتذرعون الى ذلك غالباً باسباب دينية فيزعمون انهم يريدون حماية المسيحيين في الشرق او مقاصد بعض الحكام العثمانيين لانهم تعدوا على مصالحهم التجارية او نحو ذلك مما قد يكون صحيحاً في بعض الاحوال ولكنه ليس الغرض الحقيقي لذلك التحرش وانما هو استضعاف الدولة العثمانية والطمع ببلادها الخصبه . ولو رأوا حجة غير هذه لاحتجوا بها - فلما حمل بونايرت على مصر كان من جملة اسباب حملته حماية المسلمين !

« وقد قلبت المسئلة الشرقية في اثناء هذا التمدن على اوجه كثيرة ولا سيما بعد حروب الدولة العثمانية مع روسيا وبما ان الدولة العثمانية اسلامية صار المفهوم من المسئلة الشرقية المسئلة الاسلامية وعند ذلك تدخل ايران في جملتها ولكن الاكثري

(١) يراد بالمسئلة الشرقية بمعناها العام النزاع الذي دار بين الشرق والغرب في جميع العصور والادوار التاريخية فيشمل حملات الفرس واليونان وحروب الرومان والعرب والحروب الصليبية والنزاع بين المسلمين والاسبانيول ثم بين كل دولة من دول أوروبا المدينة ودول الشرق فيدخل فيه الخلاف بين تركيا ودول أوروبا وبينهم وبين فارس والصين وكذا اختلافهم مع اليابان بسبب مطالبهم في الشرق الاقصى . على أن موضوع هذا الكتاب قاصر على المسئلة الشرقية العثمانية أو التركية دون سواها

يريدون بها الدولة العثمانية خاصة . ولم يختلفوا في وجوب ازالها وانما اختلفوا فيمن يتولى الزعامة في هذا النزاع ومن منهم ينال حصة الاسد من هذه الغنيمة وعندهم ان هذه المسألة لا تختص بامة من امهم بل هي لهم اوربا برمتها - ثم روسيا لانها في طريقها الى البحر المتوسط وهم انكثرة لانها معترضة بينها وبين املاكها في آسيا وهم النسا لانها عثرة في طريق مطامعها البلقانية وهم فرنسا لرغبتها في مد تجارتها في افريقية وهم سائر الدول بسبب ما بينها من التحالف . فكان الدردنيل حلق اوربا والزاية العثمانية حسكة في ذلك الحلق

« وعند التخصيص فانهم يعدون الدردنيل قلب الشرق او رأسه ولا تحل المسألة الشرقية الا باحتلاله والخلاف في من يحمله منهم  
 « وقد سعوا في حل هذه المسألة من وجوه كثيرة في جعلها اقسام المملكة العثمانية فيما بينهم وقد وضوا لذلك خرائط مختلفة لم يطل اختلافهم فيها وانما اختلفوا على الدردنيل وما يحدق به وهو حصة الاسد . واذا تدبرت ما دار بهذا الشأن وتاملت القران المحيطة بتاريخ هذه المسألة رأيت انكثرة أقل الدول رغبة في حل هذه الدولة وروسيا أشدها رغبة في حلها عملاً بوصية بطرس الاكبر الشهيرة » (١)

و « أفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول اوربا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة اخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في اوربا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أي مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين الدول المسيحية . الا ان هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحففة فليس بصحيح تماماً لان الدول التي تنازع الدولة العلية وجودها لا تعادها باسم الدين فقط بل في الغالب تعادها طمعاً في نوال شيء من أملاكها . وقد ارانا التاريخ احوالا كثيرة لم يستعمل فيها الدين الا سلاحاً أو وسيلة لنوال غرض جوهرى فهو ستار تخفي وراءه أغراض شتى وأطاع مختلفة . والذي يراجع تاريخ الدولة العلية ويقلب صحائف امورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها اي أنه منذ وطأت أقدام الترك ترى اوربا واسسوا دولتهم الفخمة قام بينهم وبين بعض الدول الاوربية النزاع

25-22-69  
 117

الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فإنه منذ ظهرت صولة الترك في اوربا اخذت بعض الدول على عهدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على اخراجها من هاته القارة » (١)

و « ليست حقيقة المسئلة الشرقية البحث عن الوقت الذي يتقلص فيه ظل الارك عن آخر املاكهم في قارة اوربا وانما الحقيقة التي يبحث عنها هي من ذا الذي يخلفهم في القسطنطينية والبوسفور والدرديل » (٢)

ولما كان ضعف الدولة العثمانية هو السبب في ظهور المسئلة الشرقية وتطورها وجب علينا ان نلم بأسباب الضعف المأمأ فتقول :

### اسباب ضعف الدولة العثمانية

﴿ تمهيد ﴾ يضيق الكاتب ذرعاً اذا هو أراد استقصاء البحث في علل انحطاط الدولة العثمانية وتدهورها . وانما نقول الدولة العثمانية ولا نقول الامم العثمانية لان تلك الامم التي استظلت براية الهلال لا تزال على ما كانت عليه ولم يصبها وهن أو ضعف وهي عنصر قوي من العناصر الحية الخالدة الذي يبقى ولا يفنى وان أصاب دولته ضعف أو تولاها خمول . نعم لا يزال الترك والعرب والارمن والاكراد والتركان وغيرهم على ما كانوا عليه تقريباً من صلابة العود وسمو الاخلاق الفاضلة وهم هم الألى بلغ بهم سليمان حدود العجم واسوار ثينا ووصلت بهم الدولة الى المحيط الهندي والصحراء الكبرى . فالذي تغير وتبدل هو الدولة أو الكيان السياسي والاسم الجغرافي فاما العناصر المؤلف منها ذلك الكيان فعلى ما كانت عليه الا قليلا بحسب ظروف الزمان والمكان وتأثير الاوساط والعوامل السياسية والاجتماعية

وانما يضيق الكاتب ذرعاً لان البحث أمر شاق . فعلى انحطاط الدولة مختلفة بين داخلية وخارجية واجتماعية وعمرانية وسياسية ودينية وجغرافية واقتصادية . وهذه الاسباب متداخلة لا ينفرد أحدها باضعاف قسم معين من بناء الدولة وليس تأثير كل سبب منها في ضعف الدولة كتأثير سبب آخر نوعاً وكمية كما أن الفارسي يحسن به أن لا يتوهم أنه كان في مقدور أحد رفع كل هذه الاسباب . فمن أسباب الضعف ما كان قدراً مقدوراً تقضي به سنن الكون ونواميس الاجتماع ومن الاسباب

(١) الرحوم مصطفى كامل باشا (٢) المسترديسي

ما جره العثمانيون على أنفسهم فكانوا كالباحث عن حثفه بظلفه

وبلاحظ في تاريخ انحطاط الدولة ثلاثة أمور:

(أولاً) ان جسم الدولة قد قوي على تحمل جميع الادواء التي اتايت به من حروب وثورات وعبث حكام واختلال أحكام وتضايف أعداء وراخي أصدقاء . فصدق فيها قول فؤاد باشا لنابليون الثالث يوم كان سفيراً في باريس « ان دولتنا أقوى دول الارض اذ تعاقب عليها قرنان ودول اوربا تهدم من بناؤها الشاهق من الخارج ونحن نهدم من الداخل والبناء لا يزال قائماً »

(ثانياً) ان الانحطاط كان مستمراً منتظماً منذ عصر سليمان الى الآن ولا عبرة بتلك الفترات القصيرة التي كانت تتعشش فيها وتظهر بعض مجدها العسكري القديم لقيام بعض رجالها وسلطينها أونة بعد أخرى يرتقون ويدعمون

(ثالثاً) ان بوادر الضعف وأسباب الانحطاط وان كانت ترجع الى عصر سليمان كما اشرنا الى ذلك فيما سبق الا أن الوهن لم يظهر على الدولة الا بعد مضي مدة من وفاة ذلك السلطان العظيم . نعم كانت الدولة امام الانظار قوية شاحخة البناء قتيبة في الظاهر مع أن عوامل الضعف وأدواء الفناء تنخر فيها من الداخل فكان مثلها في ذلك مثل سليمان الحكيم وقد ظل بعد موته جالساً على عرشه متكئاً على عصاه وعليه ملابس العز والدولة وشارات الحكم والصولة والوحوش والطيور والانس والجن تتطلع اليه وقد ملأها المهابة وأخذتها الروعة وهي نحسبه حياً قوياً ينشر الخوف والفرع فيمن حوله وما حوله حتى اذا أكلت الارضة عصاه التي كان يتكئ عليها وقعت جثته على الارض وعلقت الخلائق الحاضرة أنه في وباد وكان من الهالكين وكانت قبل أن تأكل الارضة عصاه نحسبه حياً قوياً في حين انه كان ميتاً في صورة حي وفانياً في شكل قوي . واذ قد لاحظنا ما تقدم من الامور فلنذكر على سبيل الاجمال عوامل ضعفها وهي قسبان عوامل داخلية وعوامل خارجية

### ١ - العوامل الداخلية

(١) اختلاف الأديان والاجناس : دل التاريخ وعلم الاختبار ان حكم الاجناس المختلفة والقوميات المتباينة والملل العديدة وحفظ النفوذ بينها يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما في ادارة شؤون الدول الاخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد

ودين واحد. لان نفوذ الأتراك المستمد من القوة العسكرية والذي تحكوا به في رقاب كثير من الشعوب الاجنبية المختلفة في كل شيء لم يكن ليديم طويلا الا بعناية خاصة باعداد الجيش لسكل طارىء مفاجيء من جهة وبارضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة من جهة اخرى

واعلم ان الفاتحين من آل عثمان اغفلوا بناء سلطتهم ونفوذهم على اوطد الاسس ولم يحملوا رعيهم النصرانية المقهورة على الاسلام واتما اكنفوا منهم بدفع الجزية واستثمار الارض لهم. وجرى الحكام العثمانيون على سياسة شديدة الخطر على حياة الدولة وهي التسامح<sup>(١)</sup> المضر بمصلحة السيادة العثمانية ذلك التسامح الذي ادى بطول الزمن الى استقلال النصارى وخروجهم من احضان الدولة مع أنهم كانوا متمسكين باهداب العمل وأسباب الارتقاء وساداتهم يحقرونهم ولا يقيمون لهم وزناً. وكان من اكبر اسباب محافظتهم على قوميتهم وتولد الرغبة في الاستقلال والقدرة عليه أنهم كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي التام في الشؤون الدينية والادارية وللسادة الترك الاشراف الاعلى والجزية. واجتمعت لهم مزايا اخرى خلاف تلك الميزة الاساسية وذلك انه لم يكد يحل نصف القرن السابع عشر الميلادي حتى كف السلاطين عن أخذ اطفال النصارى للدخول في صفوف خدمة الدولة الحربيين والملكيين واخذت الدولة ترقى اليونان في اعلى مناصبها من غير ان تحملهم على تغيير جنسيتهم ودينهم. وكان الترك يفتخرون بان يلقوا على عاتق مواليهم من اليونان النصارى مهمة مخاطبات الدول والحكومات في الامور السياسية الخارجية وفي القاء مقاليد الحكم والادارة اليهم في بعض الولايات والعمالات التابعة لتركيا. ففي سنة ١٦٦٠ شرع الترك بكون المفاوضات والامور السياسية الخارجية الى نصارى الاروام فكان هؤلاء راجمة<sup>(٢)</sup> اسماً ولاكنهم كانوا في الواقع وعلى الحقيقة بمثابة وزراء لوزارة الخارجية.

(١) معلوم أن سياسة التسامح التي جرى عليها سلاطين آل عثمان في عدم التعرض للغات الامم التي دخلت في حيازتهم كانت مع كل حسناتها سبباً في بقاء كل هذه الامم على غير تلاؤم واندماج واللغة التركية على كونها لغة الحكم كانت بحكم الجهول في بعض اجزاء السلطنة. والظاهر أنهم حاولوا بعض المحاولة لتلافي ذلك التباعد اذ بروى عن السلطان سليم الاول انه على اثر فتح مصر ومبايعة المتوكل على الله العباسي له بالخلافة اراد ان يتخذ العربية لغة رسمية فلم يتسن له ذلك فلا ذاعت العربية ولا عمت التركية فبقيت كل امة منفردة بلغتها وليس لها ما يكفي من الامم بلغة الدولة الحاكمة وحيث لا يحصل التفاهم لا يحكم الاندماج والتمازج

(٢) مثال ذلك ان احمد كبريلي عين من يدعى بانابوتي ترجماناً للدولة كما أن يونانياً آخر



كذلك كانت الدولة تجعل منهم حكماً على الافلاق والبغدان ولا شك ان جماً غيراً من نصارى اليونان كان يلتف حول اولئك الذين يشغلون منصب التراجمه او الحكم من ابناء جلدتهم وهكذا نشأ بحجي الفئار من الاستانة على نوالي الزمن نظام ارستقراطي عظيم من الاروام اعاد ذكرى ايام الدولة البيزنطية . وكان في هذا الحى الرومي مركز البطريرك او الزعيم الديني الذي أصبح مركزاً يلتف حوله الاروام وأصبح مقره بمثابة سراي الامبراطور البيزنطي القديم . ولا تسل عن مقدار المساعدات الثمينة التي امد بها بطريرك الفئار حركة الاستقلال اليوناني فانه بذل كل مرتخص وغال في سبيل نجاحها مادياً ومعنوياً<sup>(١)</sup>

وبذل اليونان كل جهد في جمع الثروة وحشد المال لعلهم ان المال قوام الاعمال فاخذوا بزمام التجارة البحرية برضاء ساداتهم الترك وكان هؤلاء يرون في التجارة خسة وعاراً فتركوها لهم وترهبوا هم على كراسي الراحة والسكسل والحمول مكسفين بالسيادة الواهية التي زول في ملح البصر متى هبت عليها ريح النشاط والاجتهاد واتخذت الابهة لزوالها والعدة لما وثقتها والتغلب عليها . وانت تعلم ان باليونان استعداداً فطرياً لركوب البحر والنجاح في التجارة . وساعدهم على السكسل والفلاح واتساع دائرة التجارة ان روسيا جعلتهم في حل من الدخول في رعيونها واستعمال راياتها وبنودها في سفائهم وشملتهم في كل ثغر من ثغور الشرق الادنى بالرعاية والاكرام . وكذلك ادى امتناع ورود حاصلات اميركا الى اوربا بسبب حروب نابليون الى تزايد طلب التجارة عن طريق اليونان وثنور ببحر الارخيل فمعظم الرزق لديهم وتوفر الخير عندهم . هذا الى ان الدولة العثمانية كانت تستخدم الاروام في سفائن اسطولها فلا بدع اذا خانوها وتألبوا عليها وخرجوا من خدمتها عند قيام اخوانهم يطلبون الاستقلال والانفصال . فانت ترى ان استقلال اليونان لم يكن الا بسبب تلك الاغلاط المتسلسلة

يدعى مافروكورداتو كان مندوباً عن تركيا في امضاء معاهدة كارلوفتس

(١) من احاديث نابليون الاول في سانت هيلانه عن سياسة الدول في الشرق الادنى قوله : « ان سلاطين النمانيين قد ارتكبوا خطأ وجروا على اقبسح سياسة نصر بمصاحتهم وتقوض دعائم نفوذهم وذلك انهم تركوا جماعة عظيمة من المسيحيين مثل اليونان في مكان واحد وجعلوا كفتهم العددية راجحة عنى كفة ساداتهم وأنه لا بد ان يكون من وراء هذه السياسة الحثاء اشأم النتائج على العثمانيين مما يؤول الي تقلص ظلمهم وافلات رعاياهم المسيحيين من قبضة يدهم عاجلاً او آجلاً »

التي جرت عليها الدولة فلا بدع اذا انكشيت رقعتها وتخاص ظلمها ودبت فيها أدواء الضعف في كل مكان من جسمها<sup>(١)</sup>

(ب) شكل الحكومة : كانت الى عهد قريب جداً حكومة استبدادية من نوع الحكم المطلق حيث يقبض رجل واحد على أزمة الامور وهو الحكم الذي افه العالم منذ نشأته وله بلا ريب مزايا باهرة مع جهل الرعية وذكاء الراعي وعدله . وكنا في العهد القديم من مثل برجل واحد نهض بامة كانت قبله خاملة ولكن لنا من جهة اخرى من مثل برجل واحد اضمحلت على يده أم شتى وامته منها . فلو ان حكومة الترك كانت نوعاً من الحكم المطلق العادل في سائر المصور والادوار لكان يكون تأخر الدولة ممتنعاً أو بطيئاً جداً . أما وقد كانت بعد عصر سليمان من النوع الاستبدادي الجائر الذي يبسح الموابقات ويستبيح المحرمات ويحجم الأذال يرقاب الرجال وينكس الرؤوس ويذلل النفوس من غير مرشد الا التعنت عن هوى تميل به النفس الى حيث لا تدري ومن غير شرع ومن غير وازع بل يحلل اليوم ما يحرمه غداً يصادر الاموال بغير حساب ويبطش بالابرياء بغير عقاب ويفرق بين الناس اذا آنس رقمة منهم عليه فيثير فيهم نائرة التعصب الذميمة فضرب بعضهم ببعض حتى اذا غفلوا عن مظالمه حيناً ثم استفاقوا من غفلتهم ورجعوا الى التظلم منه خاق لهم ملهاة اخرى يلتهون بها عنه وتقسّم به فئمة ضئيلة أموال الامة فتتم بها وتشقى الامة ولا حرج على تلك الفئمة ولا جناح . فلا عجب اذا عجزت الامة العثمانية عن الجري في مضمار التقدم والارتقاء وسقطت في مهواة الفوضى والشقاء لان سلاطين آل عثمان الاولين بعد أن نهضوا بالدولة الى ذروة المجد بما أو توه من الذكاء والحذق خلف من بعدهم خلف أضاع الاملاك الشاسعة التي نالها الاجداد بحمد السيف وحافظوا على كيانها بحسن الادارة ولم يكن للسلاطين الضمفاء هم الا الانهاس في اللذات غير مكترئين بتضعع ملكهم . وكان استبداد السلاطين استبداداً قبيحاً جائراً

(١) من هذه الاغلاط ايضاً ان الحكومة العثمانية جاءت على اليونان بوليساً منهم يقال له ارماتول كان لا شك يمتص العين عن افعال عصاباتهم المسلحة التي كانت تهيء نفسها من زمان بعيد لتنظيم حركة الثورة والعصيان وطرح النير التركي من الاعتناق . ومن هذه الاغلاط ايضاً ان الدولة العثمانية كانت تتهادى في اتساع او الاهمال حتى اذا سبق السيف الغنل ووقفت الفرصة أرسلت على اليونان قوة لتأديبهم فترتكب من ضروب القسوة ما يكسب اليونان عطف النصراري قاطبة عليهم

سببه غفلة الامة وجهالتها وفساد بطان السلاطين وحواشيهم وتقرب المداهنين المتعلقين الذين لا يشق شغاف قلبهم الصلد عويل ايم ولا صراخ يتيهم وهم حائلون بين الراعي والرعية وبايديهم سيف من النعمة مسلول على رؤوس الابرياء كما أن توارث العرش وتعاقب جلوس السلاطين عليه من غير مراعاة الكفاءة أو صوت الرأي العام مع سوء تأويل قوله تعالى « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » وكذا تداخل الجند في عزل السلاطين وتوليهم حسب ما يروق في عين طمعهم وجشعهم من الاسباب التي يعزى اليها جلوس سلاطين من الطراز الخامل الضيف أو السكير المستهتر أو الخائف المتردد أو الفاسق المغرور. نعم لو كان سلاطين آل عثمان بعد القرن السادس عشر الميلادي من المستبدن العادلين أصحاب الحذق والتدبير والسياسة والشجاعة والرأي الماضي بمن يسرون بأوامر الله وسنة رسوله الكريم لكان التاريخ العثماني الآن على خلاف ما هو عليه لان السلطان في بلاد الشرق والاسلام هو السكل في السكل هو الدولة والدولة هو ، هو الرأس ان فسد فسد الجسم وان صلح صلح البدن . ولو ان العثمانيين كانوا يختارون سلاطينهم اختياراً ويقدمون الاكفاء من أمراء البيت العثماني لما شكوا ضعفاً وتأخرآ واضمحلالاً . وكيف كان يمكن ان يستقيم الحال وقد كانت عادة السلاطين في الزمن السابق قتل اخوتهم ومن عساهم ينازعون اولادهم وراثته العرش ثم كفوا عن القتل وأخذوا يمسونهم ويحجرون عليهم. ففي الحالة الاولى يعدم ذكاه ويقبر عزم وحزم ما كان أجدره بالتهوض بالدولة الى العمياء والبلوغ بها اعلى درجات سلم الارتقاء وفي الحالة الثانية يحجب الامراء عن العالم فلا يكون لهم علم او تجربة فاذا صاروا سلاطين كانوا أشباحاً لا تعقل ولا تفقه شيئاً من فنون الحكم وأساليب الادارة ويصبحون تحت رحمة امرأة ذكية من نساء القصر أو خصي ماكر أو وزير لئيم غادر. هذا وبما تدبني الاشارة اليه ان الشريعة الاسلامية لم تذكر جزئيات النظام الحكومي الذي يسير عليه المسلمون وفي القرآن اشارات عامة في حقوق وواجبات الامام وحقوق وواجبات الرعية وقد تركت للناس حرية اختيار الانظمة التي تروقهم تبعاً لظروف الزمان والمكان. واستفاد سلاطين آل عثمان من جهل الرعية وغفلتها عن المطالبة بحقوقها التي يتبناها الكتاب الكريم فجعلوا يعبثون بالناس ويشرعون النظم التي تحفظ لهم نعمة الحكم وتستبق لهم لذائذ الاستبداد . وكان من جملة ذلك حفظ حق الحكم لافراد اسرة معينة هي

امرهم من غير نظر الى الكفاءة دائماً كما قدمنا . ولما فتح السلطان سليم مصر وارغم الخليفة العباسي على النزول له عن الخلافة الاسلامية زاد نفوذ البيت العثماني وقويت شوكنه واكتسب روعة دينية واحتراماً قدسياً جعل مناقشته الحساب من الامور المتعذرة او النادرة فاوغل في الظلم حتى وصل الى حالة نفسانية كان يشعر معها بمثل ذلك الحق السماوي الذي كان يتمسك به ملوك انكلترة من آل استوارت

وقد جر جور السلاطين واستبدادهم بالامر سلسلة جرائم وسيئات كان لها الاثر الفعال في انكماش الدولة وانحطاط السلطنة ومن تلك الجرائم والسيئات أو العيوب والخاصي ما يأتي :

١ ان السلاطين كانوا يجرون على خطة الاسراف والتبذير فينفقون النفقات الطائلة ويقمون القصور الباذخة ويركبون الخيول المطهمة والمركبات الفاخرة ويحشدون في مساكنهم جيشاً جراراً من الخدم والاماء والعبيد والخصيان من ذوي الخصصات العظيمة والرواتب الضخمة وكانوا لا يتركون وسيلة من وسائل البذخ والترف في ماكلهم ومشاربهم ومجالسهم ومنتدياتهم ومنزهاتهم وطقعهم واقامتهم ولهوهم ولعبهم الا اتخذوها بما عجزت عن القيام به ايرادات الدولة

٢ اهم كانوا يسندون وظائف الدولة المهمة الى رجال احسنوا صناعة التملق والمداهنة لاشخاص السلاطين او كانوا مقرين من محظيهم ونسائهم . أليس من أعجب العجب ان السلطان سليمان نفسه رضخ لارادة احدى نساائه وقتل ولديه مصطفى وبايزيد ارضاء لها قال الملك الى ولدها سليم وهو فاتحة شقاء العثمانيين . فاذا كانت ولاية العهد على جلالة قدرها وعظيم أهميتها يتصرف فيها السلاطين هذا التصرف المغيب فاحرى بما دونها من الوظائف ان يكون وفقاً على الرشوة والمحسوبية

٣ ان السلاطين حسبوا امتهم جيداً ودولتهم معسكراً فلما أفلح منهم من أفلح في صناعة الحرب وفتحوا ما شاءوا من الاقاليم والبقاع أخذوا الى الدعة والسكينة وانكمشوا في زوايا الكسل والملذات فصاروا فريسة الترف وما علموا ان الفتوحات السلمية ابقى من الفتوحات الحربية وان حسن الادارة وتنظيم المرافق عليه المعول في بقاء الدول . وانك لترى سلاطين العثمانيين بعد سليمان القانوني - الا قليلاً منهم - يدخلون في غمار الحروب ويعودون منها بالخمسران الميين والخذلان المشين لا الى ديوان الحكومة حيث يدعمون بالاصلاحات السلمية ما خربته الحروب الخاسرة

بل الى مجالس الندماء وأحضان النساء

على ان الانصاف يقضي علينا بان نقول ان العالم كله من أقدم ازمنة التاريخ الى سنة حدوث الثورة الفرنسية الكبرى كان فريسة استبداد الملوك والامراء والسلاطين في آسيا واوربا وافريقية وكانت تلك الثورة الدموية العظيمة بمثابة زلزال عظيم قوض النظم السياسية والاجتماعية التي جرى عليها البشر من قديم الزمان ونسج الشعب العثماني في السنين الاخيرة على منوال الشعب الفرنسي وتعلم منه فكان من جراء ذلك الانقلاب الدستوري الاخير في الدولة التركية . فاسرة عثمان لم تنفرد في تاريخ العالم بالاستبداد ولم يكن الشعب العثماني هو الشعب الفذ الذي ذاق مرارة الاضطهاد وغضاضة الاستعباد والملوك مها كان من سمو تعاليم دينهم لا يقلعون عن حب الاستئثار بالسلطة والانفراد بالحكم المطلق الا اذا زلزلت قوة الشعوب أقدامهم وحماتهم على تحقيق مبادئ الاسلام أو تطبيق نظريات الفلاسفة الاعلام

ونكاد نخرج عن موضوع البحث اذا نحن اسهبنا في بيان التأثير السيء الذي يحدثه استبداد السلطان وجوره في اخلاق حاشيته خاصة والامة عامة . فالخوف والنفاق وحب ظلم الضعفاء كالمرأة والرقيق والتملق والكذب والحيانة وحب النساء والخمر والميسر ( والناس على دين ملوكهم ) كل ذلك من النتائج التي ينتجها الاستبداد الناشم . ومن أراد المزيد من هذا البحث فليقرأ كتاب السيد عبد الرحمن الكواكبي في « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » انما يكفي هنا أن نقول ان انحطاط الاخلاق يقعد بالامة عن القيام باي عمل صالح

(ج) اهمال المرافق الاقتصادية : « كانت الدولة العثمانية الى وقت قريب بصرف

النظر عن كل ما انفصل عنها لا تزال قابضة على صفوة خالصة من قارات اسيا واوربا وافريقيا ومساحتها عدا الولايات الممتازة مليوناً و ١٥٦ الف ميل مربع فاذا ضمنت مساحة فرنسا الى مساحة المانيا الى مساحة انكلترا الى مساحة ايطاليا بلغ مجموع اتساع هذه الدول الاربعة مجتمعات ٦٣٨٣٥٣ ميلاً مربعاً اي بزيادة على مساحة نصف السلطنة العثمانية . فاذا كانت موارد الثروة الزراعية فيها ؟ الجواب على هذا السؤال يؤخذ من البحث في احوال العراق مثلاً « فهو اقليم يشمل بلاد ما بين النهرين ويمتد مما يلي ديار بكر جنوباً الى خليج العجم شمالاً ومن حدود بلاد ايران شرقاً الى حدود سوريا غرباً ويشمل ولايات الموصل وبغداد والبصرة وقسماً من ولاية ديار

بكر ويزيد عن فرنسا في مساحته ولا يفوقه في خصب تربته اقليم من اقاليم العالم كله يجترقه دجلة والفرات والزاب الاعلى والزاب الادنى ودياله وفيه شط العرب ملتقى الانهر وهو بحر فياض يعني بمده وجزره عن وسائل الارواء . العراق اقليم قامت فيه بمواصمها أعظم دول العالم القديم من البابليين الى الاشوريين الى السلوقيين خلفاء الاسكندر الى الفرس الى غفر دول الاسلام الدولة العباسية بل هو القطر الذي آثره محمد علي باشا الكبير على مصر وما والاها ووقف هيرودوتس ابوالتاريخ واجماً عن وصف تربته وخصبه خوف ان تنسب اليه المغالاة والكذب مهما خفف من الاطراء . هذا قطر مون سكان بابل القديمة البالغ عددهم ٢٥ مليوناً وفاض خيره عنهم فاصدروا حاصلاته مشحونة الى سائر البلاد وهو القطر الذي كان سواده أعظم موارد الثروة في الدولة العباسية التي ملكت اخصب البلاد وسادت أوسع الاقاليم . هذا اقليم تبددت سكانه وبارت اراضيه وان كانت لا تزال خصبة وفيرة المياه . وانما بارت اراضيه وقلت خيراته وهجرته سكانه لان سياسة الدولة العثمانية انصرفت عن نشر الامن وانشاء العدالة واحكام وسائل السقي ومهيد طرق النقل واغراء الفلاحين بتعمير البلاد . نعم عجز العثمانيون عن اقتناء أثر اهل بابل واشور والفرس والمتقدمين من الخلفاء العباسيين اذ قد توفرت الادلة الاثرية والتاريخية على احكام اصول السقي والري وطرقه في بلاد العراق منذ القدم . وهذه آثار النهروان وسدوده وترعه تشير اشارة واضحة الى أنه كانت هناك مستودعات للمياه شبيهة بمخزانات مصر تعاقب على انشائها من ذكرنا من الدول والشعوب السابقة كما أن التربة العظيمة البادية آتارها في صحراء قاحلة من السماوة الى ما بين البصرة والزيبر الى خليج فارس والمعروفة الآن بنهر عمر من أعمال بعض الخلفاء العباسيين . وقد أهملت الحكومة العثمانية حتى زراعة الاراضي الخصبة بطبيعتها . قال أحد السياح : كان من الواجب مع هذا الخصب الغريب أن لا يهمل في تلك البقاع شبر بوراً ولكن الواقع بخلاف ذلك فاذا صعدت في شط العرب من مصبه عند الفاو الى البصرة ومنها الى القرنة عند ملتقى الفرات ودجلة على مسافة تقرب من المائتي كيلومتر ورأيت جنبان النخيل الباسقة متراسة على اكثر تلك المسافة من على كتنا الضفتين ولم تصعد الى دكة قبة الربان على ظهر الباخرة لترى ما وراء تلك الرياض خيل لك أنك في بلاد عامرة خاصة بالسكان . ولكن لو وقفت بك الباخرة على أحد الصوية ونزلت منها متوغلا

بين تلك الجناين علمت أن نظرك قد خدعك وأن العمار في أكثر تلك الأراضي لا يتجاوز الجرف إلى أبعد من ميل إلى مبلين وانك في بعض المواضع ترى الأرض البور متصلة حتى إلى نهر النهر

« وما أعظم ما تكون دهشتك إذا علمت بعد ذلك أن جميع تلك الأرض في غنى عن كل وسائل العلم والاختراع لحزن الماء لاروائها إذ يتناوب المد والجزر مرتين كل يوم ولبلة في خليج العجم فينف ساعة المد في وجهه مجرى المياه العذبة فتقلب على عقبها مرتفعة فتدلاً الترع والأنهر المحفورة بين تلك الأرض فتروها بلا نفقة ولا عناء على طول المسافة إلى القرنة ولا تقف هناك بل تتجاوز شط العرب إلى مجرى كل من الفرات ودجلة على مسافة أميال

« فالأرض التي تتناول الماء بتلك السهولة لا يبقى على صاحبها إلا أن يفتح لها مجرى تسير فيه مها طال واتسع ومع ذلك فهي على ما ذكرنا من ضيق النطاق وذهاب فائدة كل ما وراءه

« فإذا كانت تلك حالة الأرض الغنية عن يد الصناعة لسقيها والمحيطه بمقر ولاية ليضمن حفظ الامن فيها فما تكون حالة ما سواها مما يحتاج إلى خزن الماء أو مما توارى عن نظر الحكومة في الاطراف

« ومساحة أراضي العراق ١٢ مليون فدان أي أنها مضاف الأراضي الزراعية في القطر المصري لكن تسعة ملايين فدان منها أمست قفاراً قاحلة ومليون فدان ونصف مليون صارت مستنقعات وما بقي وهو نصف مليون فدان لا يزال يزرع اشجاراً وحبوباً مختلفة. والمطر قليل هناك لا يزيد متوسطه على عشرين سنتيمتراً في السنة والبلاد حارة فيتوقف خصبها على ما يمكن أن تروى به من نهرها الفرات ودجلة وهما كبيران جداً يبلغ ما يجري في الفرات زمن الفيضان ٤٠٠٠ متر مكعب في الثانية وفي دجلة ٦٠٠٠ متر مكعب وما يجري في كل منهما زمن التحارب ٣٠٠ متر مكعب في الثانية من الزمان

« وقد فطنت الحكومة الألمانية أخيراً إلى أهمية الزراعة في العراق وأقنعها السير ولهم واللكس المهندس المشهور بضرورة القيام ببعض الاعمال التي بها يصلح الري وتزيد مساحة الأراضي الزراعية فاجابته إلى بناء سد كبير من رأس الترع الهندية الآخذة من الفرات لتحويل مياهها كلها إلى مجراها الطبيعي القديم بدلاً من جريها

في التربة الهندية حيث غمرت المياه جانباً كبيراً من الاراضي التي هناك فصار في الامكان رفع منسوب الماء في الفرات بواسطة هذه القناطر والحاجز الذي أمامها في فصل الصيف ( ايام التحريق ) الى ست عشرة قدماً وست بوصات فيمسر بذلك ارواء بقاع كبيرة من أخصب الاراضي وأغناها تربة فتزهو بالزرع وتحفل بالضرع بعد ما اقررت منها قروناً كثيرة » ( عن المقتطف وسليمان البستاني )

ولم يقتصر اهمال الزراعة على العراق بل تعداه الى فلسطين والشام وآسيا الصغرى فكم من نهر ذهب ماؤه هدرأ الى بحراً وبحيرة وكم من أرض لا تموزها الا الايادي العاملة وكم من اقليم يقبل من العناية يكاد يدر لبناً وعسلاً

والخيرات المعدنية على كثرتها وتنوعها في بلاد الدولة اهمل أمرها اهمالاً شائناً لا يكاد يفوقه الا اهمال شأن الزراعة . فالنجم الحجري وهو من أعظم أركان الزروة موجود في قسيمي اوربا واسيا مما بذلك بعض الهمة في استخراجه كمعادن هركلي ومما لا يزال مهملاً كمنجم مندي في ولاية بغداد ومعادن الكروم والرصاص الفضي تستخرج بقلة من الولايات الاوربية ومثلها معادن الحجر في الاراضي السنية بسوريا والنحاس في ارغنى بولاية ديار بكر وفي مواضع كثيرة معادن ظاهرة وتوشك أن تكون مهمة كل الاهمال ومنها الذهب والفضة والانتيمون والزرنينج والسبذنج والزئبق والمغنيس والحديد والقار الحجري والسائل والكبريت والبورق ومقالع الرخام على اختلاف أنواعه والبرول بضواحي الاسكندرونة وولاية بغداد والموصل فضلاً عن المياه المعدنية الحارة والباردة والملاحات البرية والبحرية والحراج والغابات التي باد معظمها والباقي منها في قسطموني وكيليكيا يفوق مثيله في اوربا

ولم تكن الصناعة باحسن حالاً من الزراعة ولم تكن بها الحكومة العثمانية العناية اللائقة بها مع ان في بلاد الدولة منشأ كثير من الصناعات القديمة التي بادت كصناعة الزجاج والقرمز في فينيقيا والنحت والحفر وصناعة التماثيل في جزر الارخبيل والرسم وما لحق به من نتاج الفنون الجميلة في القسطنطينية وما والاها من البلاد . وكان آخر هذه الصناعات عهداً بالاضمحلال صناعة القاشاني البديعة في دمشق ومع وجود كثير من الصناعات الخاصة ببعض البلاد فلا يصدر من المصنوعات العثمانية الى اوربا غير السجاجيد من ازميز والكهرباه من الاستانة والصدف المنقوش من بيت لحم . وأعجب من العجب ان في اوربا مصنوعات كثيرة مما لا يستعمل فيها وأما يصنع فيها



ليُرسل الى بلاد السلطنة العثمانية كزجاج الزجاج والطر ايش وربما أخذت مادة  
المصنوعات من بلاد الدولة وأدخلت معامل اوربا وعادت منها الى بلاد الدولة  
مصنوعة ومنها أضعاف مضاعفة وسبب هذا جهل الناس وفساد سياسة الحكومة  
السابقة التي لم تنهض بالصناعة قليلاً أو كثيراً مع وجود مواد الصناعة ومعداتها متوفرة  
ووجود العامل الحاذق النشيط والفحم الحجري ومنتجات القوة المنفرقة في أنحاء  
البلاد من منحدرات الأنهار الكبيرة الى شلالات الأنهار الصغيرة التي تولد الكهرباء  
بقوة الوف الاحصنة ومع وجود أحسن المواد اللازمة لمعامل الحديد والخشب والزجاج  
حتى بناء السفن هذا فضلاً عن الحرير والصوف والقطن والكتان والمعادن

وقد كان من المنتظر ان يكون للتجارة في البلاد العثمانية شأن اعظم من شأنها  
لموقع السلطنة في ملتقى قارات العالم القديم الثلاث وبما لها من الثغور والمرافئ الكثيرة  
على سواحلها الطويلة المشرفة على أهم وأعظم بحار العالم وبما لسكانها من يونان وشوام  
وعرب من الشهرة التجارية القوية والحذق المالي الموروث وما فيهم من حب السفر  
والخاطرة وما في البلاد من خيرات معدنية وزراعية. ولكن ابي الكسل أو الاهمال  
الا أن يفتح التجارة بريح السامة فذوى نحصنها ويبس عودها لفساد طرق المواصلات  
ووعورة السبل وفقدان الامن وانتشار الظلم وقلة السفن التي تمخر الأنهار ونعبر  
البحار بما يكون ملكاً للوطنيين. هذا الى قلة السكك الحديدية التي عليها مدار الثروة  
وقوام العمران

ولو كانت الحكومة العثمانية نشطت الى ربط البلاد بالسكك الحديدية الكثيرة  
لخففت وطأة الكساد الذي غشا بلادها بانشاء قناة السويس وتحويل تجارة أوربا الى  
مصر والبحر الاحمر ولا يمكنها نقل الحاصلات الزراعية الزائدة من جوف السلطنة  
الى ثغورها وبيعها والاتفاح بثمنها بل لا يمكنها اسعاف البلاد المنكوبة بالمجاعة بالاقوات  
على جناح السرعة. لو أن الحكومة العثمانية غطت بلادها بشبكة من السكك الحديدية  
لاوقفت تيار المهاجرة بنشر أسباب اليسر والثراء بين الناس ( وما كان ربك ليهلك  
القرى بظلم واهلها مصلحون )

( د ) التأخر العلمي : عمدة الدول في ارتقاء سلم العلياء العلم . هو السلاح الذي  
عليه الممول في التفوق على الاقران ومغالبة الزمان . ما هيض جناح امة خفقت على

ربوعها راية العلم وما تثر شعب اتخذ العرفان متكاً . بالعلم ركب الناس متون الهواء  
وبقروا بطن الارض وغاصوا لجة الماء فانكشفت لهم خيرات وبانت لهم كنوز سخرها  
في منافعهم واستخدموها على طرائق شتى . بالعلم صار الانسان مخلوقاً خفيفاً وكائناً  
رهيباً لا يكاد يترضه في سبيل امانيه عارض . ماذا أصاب العثمانيون من العلم ؟ شيء  
قليل دون ما يرنجي الصديق ويكبت العدو . لو انهم أصابوا منه حظاً وافراً لكانوا  
شعباً عزيزاً فوق دس الدساسين وكيد الاعداء . اذن لكان لهم مرأ لا يزدرد .  
وعودهم صلباً لا يهصر . لو كان العلم حاضر أمرهم في حروبهم لجعل من حميتهم وبساتيمهم  
وشجاعتهم الفطرية قوة لا تقهر ولو خرجت اوربا كلها للقائها . ولو انهم اهتموا  
بهديه في فترات السلم لوحد الغايات وانف بين القلوب وحمل الناس على المضي متحدن  
في طريق كل عمل صالح . اذن لما رأيت العثمانيين جميعاً وقلوبهم شتى . اذن لكان  
سير الحوادث البشرية في غير مجراها الحالي

غير ان المستبد يستمرى جهالة الرعية . لا يريد للناس علماً به يتذوقون طعم  
الحرية ويتشككون في صواب بقائهم على الخضوع له طويلاً ثم يسمون اليه يلقون  
راحتهم ويناقشونه الحساب . اسمع ما يقوله رجل من اخلص العثمانيين العرب عن  
التعليم في بلاد الدولة « اختلت بشدة المراقبة فابعد منها كثير من المطالب المفيدة  
ابعاد المنفيين الى فزان حتى لقد حرم على الطلبة درس المههم في التاريخ ولو كان  
تاريخ بلادهم وشوهدت جغرافية البلاد العثمانية وخرائطها مخذف وبدل منها من  
الاسماء ما طالما افتخر سلاطين آل عثمان بدخوله في حيازتهم وحظر تعليم بل قراءة  
العلوم الفلسفية والاجتماعية ومنع الاسانذة من الفاء أي شرح مفيد على الطالبة حتى  
حار المعلمون في أمرهم وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية او حسابية صرفاً بخشون  
أن توجس منهم اشارة الى عدد يوافق اعداد سني الظلم أو فتحة او كسرة تشيران الى  
فتح الاعين وكسر القيود كل ذلك خشية من أن ينبثق نور العلم في أدمغة التلامذة  
فيعلمون أنهم من بني الانسان وان لامتهم حقوقاً يجب المطالبة بها »

واعتره قوله في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية :

« بقي لنا كلمة في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية . اما الاولى ونعني بها التي  
شادها أهل البلاد فهي قليلة لم يكن يرجي منها النفع المقصود مع شدة اعتناء اصحابها  
بها لان اكثرها تحت أحكام هذه المراقبة الجائرة . وأما المدارس الاجنبية فهي التي

كانت متمتعة بحرية حرمت على ما سواها ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمان على الماء الزلال وبثت نور العرفان بين جمهور عظيم من قتياننا ولكن مع اعترافنا بجزيل ما تحقت وأفادت لا يسعنا الا القول جهاراً ان فيها نعمة متسعة لا يمكن سدها الا بتغيير الاحكام . فمن من أرباب تلك المدارس على فضله بهم بيت روح الوطنية بين تلامذته بل من منهم وهم متممون لامم متناظرة لا يسى جهد طاقته في اسهالة تلامذته الى امته ودولته وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا . ووصف المرحوم ولي الدين بك يكن في الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول عمل مجلس المعارف الاعلى بالاسنانة وكان قد تعين فيه عضواً : « وبينما نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لي انه أحد كتاب قلم المجلس قد زرر سترته اذ بدأ وأمسك اوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هي على يسار الرئيس فوضع عليها الاوراق ووقف ينتظر الامر فقال راسخ افندي « الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغي ان تنظر فيه من الاوراق فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى فاذا رآها على ما يجب وافق عليها واذا رأى موضعاً للاعتراض اعترض . » فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وانا اسمعه وأناأمل حال الاعضاء فرأيت واحداً يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثاً وآخر يكتب كتاباً وثالثاً يأكل الخبز ورابعاً اثقل النعاس هامته وخامساً يقرأ جريدة في يده واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانيء

كان اروسهم والنوم واضعها على المناكب لم تخلق باعناق

فهاشي ما رأيت حتى خيل اليّ اني بين جماعة من ابناء السبيل نزولوا بدار مطعم وأقاموا ينتظرون غناهم واستمعت ما يتلو الكاتب فاذا هو استئذنان من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لاصلاح أنابيب المياه في مدرسة من مدارس البنات لا يحضرني اسمها فلما انتهى الكاتب من التلاوة وشرح الرئيس للاعضاء بمجل

ما تلاه قال أحدهم - فليكن

آخر - لا . لا يكون أبداً

ثالث - ولم لا يكون

رابع - نعم صدق فلان . هذا لا يكون أبداً

خامس - أنت لا تدري من هذه الامور شيئاً . تكلم فيما تدربه ولا تشغلنا  
بهذرك هذا

سادس - أرجو ان لا يطول هذا الجدل والا اضطررنا الى الدخول معكم فيما  
لا نريد

الرئيس - كفى كفى . يظهر لي انكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش  
الجميع وفيهم المخالفون - نعم نعم كلنا نوافق  
فوالله ما رأيت مشهداً هو أننى لصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناى فيالك من  
ميرك ابل انا احد أزواده . فعاودنى هنالك شيطاني وفتح في اذني ففتحته فقلت لمعم  
كان باركاً الى جانبي

- ما قدر ميزانية المعارف

- لا أدري

- كيف لا تدري ثم توافق على احتساب مبلغ منها

- وما يعنينا نحن من ذلك . لينظر في الامر من هم فوقنا . وما جىء بنا هنا لنحاسب  
الناس على كل ما يقولون . انا أحب أن لا أتعدى ما رسم لي . وأنت جئت اليوم فلا  
تدري من اعمال المعارف شيئاً فالولى لك أن لا تعجل في الرأي وان لا تكشف مقالتك  
لحاسديك

قلت وهذه فائدة استفدتها وقد ذهبت هية المجلس من عيني وابتقت ان هذا  
البناء الذي يظل رجال العلم في الامبراطورية العثمانية لا يواوي الا اناساً هم نخبة  
جهلها فاشفت على وطني وتميت ان لا اعيش حتى أشهد مصرعه «

( ه ) ضعف الجيش والاسطول : قضت سنة الكون ونواميس الاجتماع ان  
يكون الغلب والبقاء للاصاح سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو انساناً أو حكومة أو دولة  
أو نظاماً اجتماعياً أو تشريعياً . القوي يبقى والضعيف المجرّد عن وسائل المقاومة يبئد  
ويتلاشى . عرف الناس من قديم الزمان وسالف الحقب ان بعضهم طامع في البعض  
الآخر وانه لا بد من سلاح به يدفع عدوان القوي ويؤخذ ما يبدي الضعيف  
فاستحدثوا نظام الجيوش وجعلوه عدة لدفع الاعداء واستكثار الرزق بفتح الاقاليم  
وغزو الامصار

وكانت الدولة العثمانية اول دولة عرفها التاريخ الحديث اقامت جيشاً عظيماً فرت

به في احشاء البلاد وفتحت به من الاقاليم ما اشتهت وطاب لها . نعم كانت جيش الانكشارية وما لحق به من مجلب الدولة ونابها وحارسها وسياجها . كان ذلك ايام كان الاخلاص رائده وعز الدولة غايته ورفعة الدين والملة مقصده ومطلبه ورضاء السلطان والعبودية له امنيته . فلما اتسعت رقعة الفتوحات وارتعت خزائن الدولة بالمال واصاب العثمانيون عزاً وجاهاً ودانت لهم اخصب الاقاليم وانغى البقاع تاه الانكشارية في يدها الفرور والكبرياء وعلموا انهم اصل الصولة وانحجاب الدولة وبنية المجد ورافعو لواء السؤدد فتدخلوا فيما لم يكن لهم فيه شأن وصاروا يعزلون السلطان ويولون غيره حسب أهوائهم . واذا كان السلطان من صنائعهم فاولى بمن دونه رتبة ومن هم اقل منه درجة من رجال الدولة وعمال الحكومة ان يعنوا لهم ويخافوا بطشهم وانك لتجد تاريخ الدولة العثمانية من عهد سليمان وقبل سليمان الى عهد قريب تاريخ حكومة اعجزها غرور الجندية وارهقتها عناد العسكرية حتى اذا بلغ السيل الزبى ولم يطق الناس صبراً اتبع للسلطان محمود الثاني ان يستأصل شأفتهم ويقطع دابرهم على نحو ما تراه مبسوطاً في غير هذا المكان من كتابنا هذا

على أن السلطان محموداً كان في زمن قد كثرت فيه الاحن والحن وكشرت له النوائب عن نابها من كل جانب فقد تار اليونان وتمردوا وشقوا عصا الطاعة وطمع فيه ولاه من صنيعته وخرجوا عليه وارادوا الاستبداد بما تحت ايديهم من الامصار والاقاليم وظهرت مذاهب دينية وفرق وشيع وبدت أهواء ومطامع وهبت بسفينة الدولة اعاصير وزعازع وهي في بحر خضم من الفوضى والاضطراب فكانت الحاجة ماسة الى جيش قوي يعيد الامن الى نصابه ويستنزل العصاة من معاقلم ويرد كيد الثائرين في نحرهم وهذا ما لم يجد به الاقدار على السلطان محمود فقد اباد الانكشارية ولسكنه لم يجد بد لهم قوة ذات بال يعتمد عليها . وقبض للسلطان عبد المجيد ووزيره الامين رشيد باشا ان يرفعا بناء الجيش الحديث الذي وضع السلطانان سليم الثالث الشهيد ومحمود الثاني المصاح قواعد على النمط الاوربي الحديث وتابعهما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني الذي استعان بصداقة الامبراطور وليم الثاني على ادخال النظام والسلاح الالماني على الجيش التركي وقد تم له ذلك بقدر ما سمح دخل الدولة وشاءت همة رجالها الكبراء . واستفاد الالمان من الدولة فوائد اقتصادية جمة وافادوها فائدة تذكر بالشكر والثناء حتى صار الجيش العثماني نواة لجيش كبير يخيف يكون في مستقبل

الايام ان شاء الله عدة الدولة في استرجاع مجدها الغابر  
وهالك وصف الجيش القديم قبل وفاة سليم الثالث (١٨٠٧) : « كان الباب العالي  
يستطيع أن يحشد ٣٠٠٠٠٠ من المشاة والفرسان اذا دعا داعي الحرب فاذا همي  
وطيسها اذن مؤذن في الناس فتطوعوا وملاوا ما عسى أن يحدث في صفوف الجيش من  
الفرار. على أن الجيش الاصلي ومن وافاه من المتطوعين كان همجاً واخلاقاً عديمة النظام  
والتجربة حديثة عهد بالخدمة العسكرية وقل منهم من قيد اسمه في السجلات قبل  
سته أشهر واذا اصابهم انكسار أو رأوا مكروهاً أو آنسوا كراً لم يظهروا صبراً أو جلاً  
بل تفرقوا وهاموا على وجوههم هارين لا يلوون على شيء، ويمنون في اناس في  
طريق عودتهم سلباً ونهباً سواء كانوا في منطقة مصافية أو معادية اسلامية أو نصرانية.  
والتركي خصم عنيد وبطل صديد اذا قاتل معتصماً بقلعة أو خندق أو دخل معمة  
غير نظامية على أرض وعرة وكثيراً ما روعت الاوربيين حملة الفرسان الترك اذ يقبلون  
كصاعقة شديدة تنقض فتتخلع لها القلوب وترتعد لهولها الفرائص . على أن الجيش  
التركي اذا قورن بجيوش أوروبا ذات الحركات المنظمة والحيل البدعية كان كما قال نابليون  
جماعة من همج آسيا ولم يكن أي قسم من الفرسان أو المشاة يعلم لاستعمال الاسلحة  
نظاماً أو يعرف لها قانوناً ولم يكن يعرن على العمل الاجتماعي الذي تقضي به أبسط  
الضرورات الحربية فكان كل عسكري يتقلد من السلاح ما شاء ويقا تل العدو وفق  
ما يريد ويختار . وقد وصف الجزرال بوير الفرنسي الجيش التركي بأنه معدوم النظام  
والثبات عاجز عن السير صفوفاً يفاجيء العدو مفاجأة همجية حادة مشوشة

« وما زاد النظام فساداً والامر اختلاطاً أن ولاية الامور كانوا يكافئون الاجناد  
بقدر ما أصابوا من رؤوس القتلى فكان هم الجنود قبل أن يستكملوا الانتصار أن يتفرقوا  
في أطراف الميدان يجثون عن رؤوس القتلى ليحملوها الى فسطاط القائد حيث ينالون  
الاجر والجزء كل بقدر ما أصاب من الرؤوس . وكان حال الاسطول شرراً من  
حال الجيش وذهب سمي الغازي حسن والقبطان باشا حسين الذي خلفه في اصلاح  
الاسطول سدى »

وقد كان ضعف الاسطول العثماني بعد موقعة لينتدوا أكبر الضربات التي  
اصيب بها جسم الدولة ومن أعظم علل تأخرها وانحطاطها . ومن يقابل بين اسطول  
الدولة أيام السلطان سليمان واسطولها أيام استقلال اليونان لا يسعه الا التأسف

والتحسر على ما جرّه العثمانيون على دولتهم وامتهم باهمالهم . فلم يكفهم أنهم وقفوا به عند غمط واحد من المراكب الحشدية الضخمة الثقيلة بل اهلوا امره وتركوه للاروام من رعايهم . فلما كانت حرب الاستقلال اليوناني عطف بحارة الاسطول العثماني على أبناء جلدتهم وأولاد عمومهم فهجروه هجراً أو أساءوا الخدمة ولم يخلصوا العمل . ومن العجيب ان الدولة العثمانية قد ملكت سواحل طويلة جداً ذات مرافئ عديدة جميلة على جملة بحور . فالبحر الاسود والبوسفور وبحر مرمره والدرديل وبحر الارخبيل وبحر الشام والبحر الاحمر كانت في قبضة يدها ويعنو لها من الناس من عرفوا بحب المخاطرة واشتهروا بحسن ركوب البحر ومهروا في امتطاء صوته من زمان قديم وغابات لبنان واحراج الاناضول كقبلة بتموين الاسطول بالحشب الصلب الحيد الكثير . فكان من المعقول بعد ذلك ان تحافظ الدولة على كرامة اسطولها لا سيما واوربا قارة لا عز لها الا بالبحر هو قوتها وهو عمادها وهو مصدر ثروتها وهي عدوة الدولة العثمانية تضرر لها الشر فكان حقاً على الدولة أن تعتقد أنه لا يفيل الحديد الا الحديد وانه لا بقاء لها بين دول اوربا البحرية الا اذا كانت لها المنزلة البحرية الزهية وقد فطنت الدولة العثمانية أخيراً الى ضرورة الاستمانة بضباط الاسطول الانكليزي على اصلاح اسطولها ولكن سبق السيف العذل اذ يحتاج ساحل الاناضول وحده الى اسطول كبير قوي يحميه من عدوان اليونان وليس تدير ذلك في مقدور الترك الآن

هذا ما عنّا لنا من علل انحطاط الدولة وكلها علل داخلية ويزيد بعض الباحثين عليها الامتيازات الاجنبية وعصيان بعض الولاة وراحم الديون وخيانة القواد ورجال الحكومة واهتمام تركيا بالفهم الاوربي الى غير ذلك من الامور الثانوية

## ٢ — العوامل الخارجية

اما العلل الخارجية فتتخصر في ظهور روسيا والنمسا بمظهر العدوان ومظاهرة أو معاندة اوربا لها مدفوعة بعامل العصبية الجنسية او المصلحة المادية « قد زعم البعض أن الدول الاوربية تريد بالدولة العلية ودولة ايران شراً لأنها مسيحية وهما اسلاميتان ولا أبعد عن الحقيقة من هذا الزعم لان محور حركات الدول الاوربية المليون واكثرهم من الاسرائيليين لا من المسيحيين ولان اكبر الدول الاوربية المسيحية نصرت الدولة العلية على روسيا وقت حرب القرم بالمال والرجال

كما لا يخفى ووطنها بعضها على بعض أشد من وطنها على الدول الاسلامية فقد اجتاحت مملكة بولونيا المسيحية واقتسمتها وحاربت المانيا فرنسا حرباً لم يشهد التاريخ مثلها وامتلكت جانباً منها وحاربت النمسا قبل ذلك وهي صديقتها الآن واثارت فرنسا الحرب على كل دول أوروبا المسيحية في عهد بونابرت ولو حالفته تركيا لا كنتي بمحالفتها واثارت انكلترا الحرب على جمهورية الترنسفال المسيحية وامتلكتها وعضدت اليابان الوثنية في حربها مع روسيا المسيحية . وقد تدعي الدول أحياناً ان الدافع لها الى الحرب أمر ديني كما ادعت روسيا وقت حرب القرم وكما ادعت دول البلقان ولكن هذه الدعوى لم تثبت على نار الامتحان فقد اختلفت دول البلقان واخذ بعضها بخناق بعض وقد يحالف احداها تركيا على محاربة الاخرى ومن المحتمل ان الدين كان من جملة الدوافع للحروب الصليبية الاولى واكنه لم يكن الدافع الوحيد ولا الدافع الاقوى واذا قلنا ان المصالح المادية هي المحور الوحيد الذي تدور عليه سياسات الدول لا نخطئ . « ( عن المقتطف بتصرف )



## موجز تاريخ تركيا

من قيام عثمان الى آخر عهد سليمان

كان الأتراك العثمانيون عشيرة صغيرة من قبيلة اغوز ألبانها غارة المغول الى مغادرة مواطنها بحر اسان والانتصام بآسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . وقد أجاز السلطان السلجوقي لافرادها رعي أغنامهم في الاقليم الذي كان يعرف قديماً باسم فريجييا ابكتتوس على حدود الاقليم البوزنطي المعروف باسم بنيا وأنخذوا مدينة سوجوت ( تابسيون ) حاضرة لهم . وكانوا في حمى سلطان السلاجقة مكافأة لهم على ما قدموه اليه من الممونة الثمينة . وولد عثمان في سوجوت سنة ١٢٥٨ م ( ٦٥٦ هـ ) وهو رأس الاسرة السلطانية التي أنجبت ٣٥ سلطاناً من عصابة ذكر واحدة وفعل عثمان فيما فعل ازاحة الحدود البوزنطية الى الغرب . أما أورخان ابنه فانه استولى على بروسه ونيقة وأدج اقليم كره سي في أملاك العثمانيين وأنشأ فرقة الجند الجديد بني تشري ( الانكشارية ) التي كانت زهرة الحيوش العثمانية الغازية المظفرة قروناً عديدة . وفي سنة ١٣٥٨ م ( ٧٥٩ هـ ) عبر الأتراك مضيق الدردنيل وجعلوا في غاليلوي حامية منهم وشرعوا في اكتساح الاقليم الاوربية التابعة لدولة الروم الشرقية ( البوزنطية ) فسقطت أدرنه وقلبه في أيديهم في سنوات قليلة . وباتتصايرهم على أشجع فرسان اوربا على ضفاف الميرتزا ( ١٣٦٤ ) وفي سهول قوصوه ( ١٣٨٩ ) تآيد امتلاكهم لاقليم شبه جزيرة البلقان كلها الامدينة القسطنطينية وما حولها . ونجحت عاصمة الامبراطورية الشرقية مؤقتاً باغارة تيمور التتري على املاك العثمانيين في آسيا الصغرى . وباتتصاير انتصاراً باهراً على سلطانهم بايزيد الاول في موقعة أنقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ م ( ٨٠٤ هـ ) ظهر كأن الدولة التي امتدت من نهر العاصي الى نهر الطونة على شفا الحراب والدمار بضربة واحدة . على أن الله سبحانه وتعالى نظر اليها نظرة وقيض لها السلطان محمد الاول جلبي فلم الشعب وجمع المتفرق وأحكم النظام بحكمته التي لا يختلف فيها اثنان . فبعد انقضاء فترة سلم وسكون مضت في عمل الاعمال السلمية المفيدة استطاع مراد الثاني أن ينقذ السلطنة من غارة هنيادي ( بطل الافلاق الابيض )

وينتقم من اهل أوروبا الذين نقضوا عهود المحالفة بانتصاره في وارنة سنة ١٤٤٤  
انتصاراً باهراً على جيوش الاوربيين الذين كانوا قد اجتمعوا لقتاله قتالاً دينياً .  
وكان انتصاره بحيث أمن على بلاده من جهة الشمال وبحيث تفرغ العثمانيون  
لاحراز سلسلة انتصارات باهرة مدة القرنين التاليين . وفتح محمد الثاني القسطنطينية  
سنة ١٤٥٣ وزالت بسقوطها في يد الاتراك العثمانيين البقية الباقية من الامبراطورية  
الشرقية . واستلحقت بلاد القرم سنة ١٤٧٥ وأصبحت جزائر بحر الارخبيل ملكاً



السلطان سليمان الكبير

للعثمانيين وحقق العلم العثماني على قلعة أوترانتو في ايطاليا نفسها . واستطاع سليم الاول  
في مدة حكمه القصير التي لم تكن لتزيد عن ثماني سنوات أن يقهر شاه الفرس  
وأضاف الى السلطنة العثمانية اقليم كردستان وديار بكر كما أنه استولى أيضاً على الشام  
ومصر وبلاد العرب وانتزعهما من أيدي المماليك سنة ١٥١٧ ولم يكفه انه أصبح  
سيد البلاد المقدسة (مكة والمدينة) بل تسلم ايضاً من آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة  
الآنار النبوية الشريفة وحق الوراثة في الخلافة الاسلامية  
وكشف السلطان سليمان أعمال ابيه سليم الاول بما قام به من الاعمال الباهرة  
الخالدة العظيمة . ففي سنة ١٥٢٢ طرد فرسان رودس من مكائهم التلصصية فيها . أما

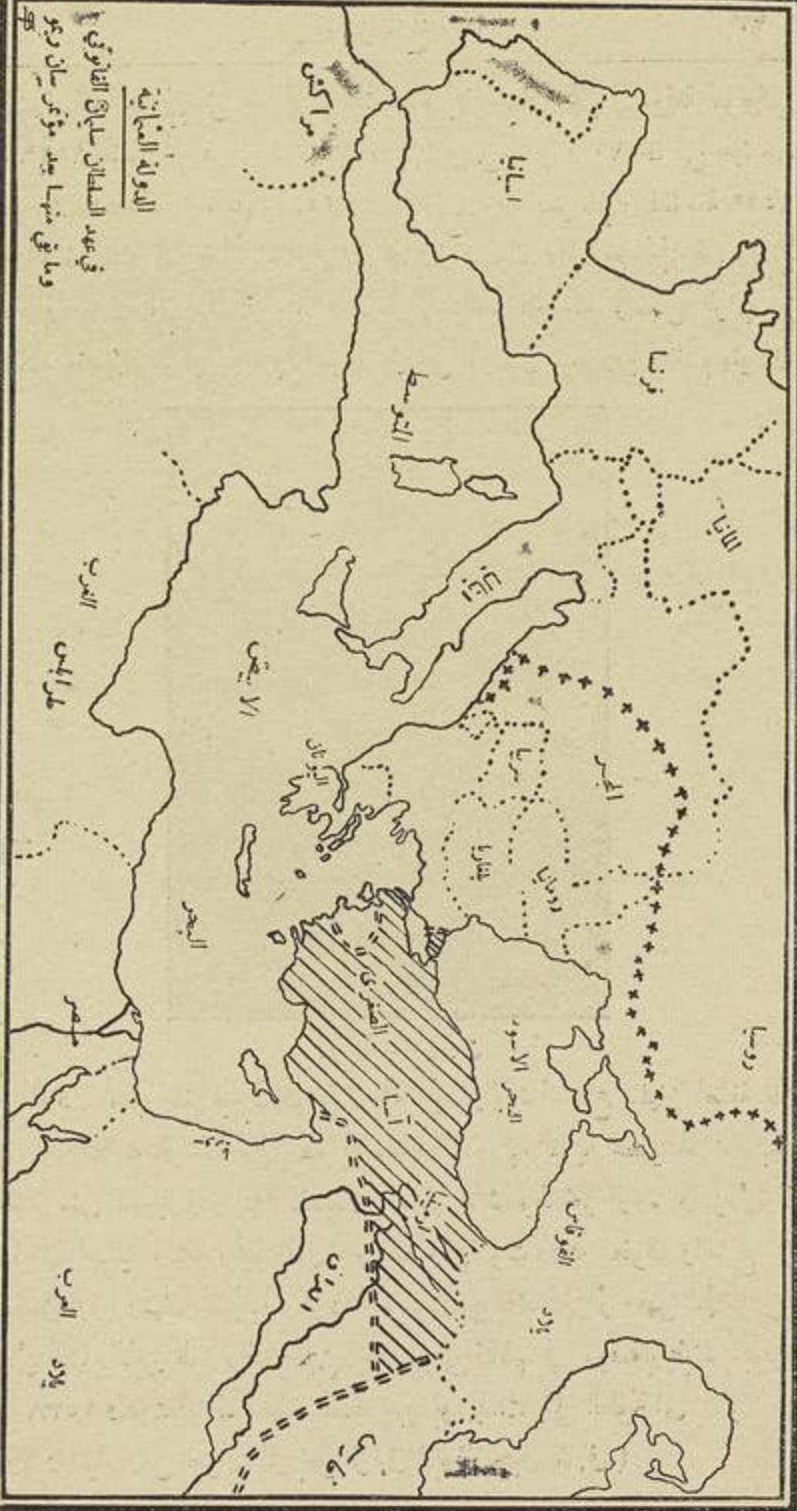
في الشمال فقد استولى على بلغراد ثم انتصر على فرسان المجر في موقعة موهكس سنة ١٥٢٦ انتصاراً باهراً جداً وقتل ملكهم لويس الثاني و ٢٠ ألفاً من جنده وأصبحت بلاد المجر عمالة عثمانية مدة قرن ونصف . وحاصر سليمان فينا سنة ١٥٢٩ ومع انه لم يستطع قهرها الا انه ارغم الارشيدوق فردينند على دفع الجزية . وليس استحقاق سليمان لقب الاكبر مبنياً فقط على اشتهاره بالحكمة وحسن الرأي مع انتصاره انتصارات باهرة متعاقبة عديدة بل على انه كان سيد اوربا ومقدم ملوكها .



بربروسه الفاتح العثماني

ففي الوقت الذي بلغ فيه شارل الاول قمة المجد والقوة استطاع سليمان اضافة بلاد المجر الى املاكه الواسعة وفي عصر الاساطيل الاوربية القوية عصر امراء البحر اعظام مثل دوريا ودربك اكتسحت أساطيله شطوط بحر الروم وجزائره الى سواحل اسبانيا ونشر رجاله مثل بربروسه ودراغوت وبياله الخوف والفرع على سواحل اوربا وشمال افريقية وطرردوا الاسبان من بلاد الجزائر وقهر العثمانيون سفان البابا والامبراطور والدوج التي اتحدت على قتالهم في موقعة بريفيزة البحرية سنة ١٥٣٨ وكانت املاك سليمان تمتد من بودابست على الطونة الى اسوان على شلالات النيل ومن الفرات الى بحر الزقاق ( بوغاز جبل طارق )

الدولة العثمانية  
 في عهد السلطان سليمان القانوني  
 وما تبقى منها بعد مؤتمر سالونيك



## الفصل الأول

دور التدلي والأخطاط ١٥٦٦ - ١٦٤٠

انعكاس الآية - اسباب الأخطاط - سليم السكير - صقلي محمد - سنان باشا - الحملة على استراخان - الاستيلاء على قبرص - موقعة لينتو - الدون جون النمساوي - أولوج علي - الصالح مع البندقية - مراد الثالث ومحمد الثالث - صفية - الكونت سقلا - موقعة كرزت - احمد الأول - بعثة انكليزية - مراد الرابع - الاستيلاء على جورجيا - فتنة جنود السباهي - شدة السلطان - الاستيلاء على بنداد - موت مراد الرابع

بلغت السلطنة العثمانية لعهد سليمان شأواً رفيعاً من العز والمنعة وأدركت الغاية من الاتساع وبسطة الرفعة . غير ان اسباباً داخلية وخارجية عملت على تدلي العثمانيين وتدهورهم وانكماش ظلمهم<sup>(١)</sup>

كانت البندقية أول من نازع سلطنة سليمان السيادة والعز الرفيع . وقد جلس على عرش الرجل العظيم بعد وفاته ولده المسمى بحق سليم السكير . ولم يكن من المعقول ان بناء السلطنة الشامخ الذي رفع ابوه قواعده بمساعدة جماعة من أمائل الرجال ينهار على يديه دفعة واحدة . وذلك ان نقرأ منهم وفي مقدمتهم الصدر الاعظم صقلي محمد لم يألُ جهداً في السير بالدولة في السبل التي اختطها لهم مولايم واستاذهم الراحل السكيريم . وأخذوا يفكرون في القيام بأمر جسيمة خطيرة ويعدون الكتاب لفتح القنوح فأرسلوا سنان باشا على رأس جيش لنهر بلاد العرب فتم له ما أراد ودعا خطباء مكة في المنابر « لسلطان الاعظم والحقان الاختم سلطان البرن والبحرين وصاحب المزارين الاسلاميين الشريفين سليم خان ابن ساجان خان » وأرسلوا أيضاً الى استراخان حملة - سيأتي شرحها - لم تكن قريبة النصر والظفر فلم يعد من عساكرها الى الاستانة غير ربهيم . ثم تلا ذلك فتح قبرص وانزاعها من أيدي البنادقة وقد عهد هذا الى منافس من منافسي الصدر الاعظم صقلي وهو رجل يدعى لالا مصطفى كان معروفاً بتهوره وركوبه المراكب الحشنة من الغلظة والقسوة ولم يستول على الجزيرة الا بعد هلاك

(١) رابع كتاب الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده للبستاني ، وأوروبا والجامعة الاسلامية لرفيق بك العظم ، وكتاب المعلوم والمجهول للمرحوم ولي الدين بك يكن ، وكتاب زوال السلطنة العثمانية من أوروبا للكاتب جرنغل باكر ، وكتاب التصوف والسكر في تركيا للسيدة جارت

خمسين ألفاً من جنده انتقم لهم من قائد حماها الابطال المدعو براجادينو بسلخ جلده حياً

على أن السيادة البحرية التي أصابها العثمانيون باستيلائهم على جزيرة قبرص لم تكن لتستمر من غير نزاع. فقد تألف حلف بحري عظيم من البنادقة والاسبانيين وفرسان مالطة وغيرهم وأعد أسطول مؤلف من ٢٠٠ سفينة و٦ ماعونات هائلة وجعل بقيادة الدون جون النموي وكان اذ ذلك شاباً لا تزال أخبار اضطراره لعرب الاندلس ترن في آذان الاوربيين وتطربهم وكان الناس يعدونه أشجع أهل زمانه وفارس عصره وأوانه. ولم يسع الاترك العثمانيين الا أن يقابلوا هذا الاسطول العظيم بأسطول أكبر منه سفناً وأعز نفراً فحشدوا ٢٤٠ سفينة كبيرة وستين سفينة صغيرة في خليج بتراس وجعلوها بقيادة مؤذن زاده وأولوج علي وغيرها من أكبر القواد أهل التجربة وأصحاب البصيرة. وفي السابع من اكتوبر عام ١٥٧١ برز الدون جون بسفائنه من خليج ليانتو وأصلى العثمانيين حرباً وقد جعل سفن القلب على شكل نصف دائرة بقيادة أمير بآرمة الشهير وجعل نفسه في المقدمة وجعل الست الماعونات في صدر خط القتال واتخذها رداء. وكان الترك هم البادئين ففغرت مدافعهم أفواهاها غير ان الحسارة العظيمة أصابتهم لان سفائنه لم تقحم خط القتال ولم تصل الى حيث كان الدون جون حتى لحقها عطب شديد من الست الماعونات القائمة رداء للسفن الاوربية في صدر خط القتال. والتحمت سفائن القواد من الطرفين ونشبت معركة يشيب من هولها الولدان مدة ساعتين من الزمان وقتل القائد التركي في آخر الامر وانكفأت سفينته بمن فيها وانكسر القلب العثماني وولت سفن الجناح الايمن الادبار. فاما الجناح الايسر بقيادة أولوج علي فأصاب انتصاراً وكسر دوريا (ابن أخي القائد البحري العظيم المشهور في التاريخ بالاسم عينه) وكاد يستولي على بعض سفن الاعداء لولا انه اسقط في يده اذ شاهد ما حل بقومه من الهزيمة والعطب فلم يسعه الا شق طريق له بين جموع السفن المضطربة الهائجة ولم يعد الى البوسفور بأكثر من أربعين سفينة هي جملة ما سلم من أسطول كبير عظيم. وكانت جملة ما أغرق وأحرق من المراكب التركية أربعاً وتسعين ولم يقل ما أسر عن مائة وثلاثين وخسر الترك من الرجال ٣٠ ألفاً وحرر ١٥٠٠٠ من أرقاء الاوربيين الذين في خدمة الاسطول العثماني وهذا الانكسار البين الذي لحق بالاساطيل العثمانية كان لا بد يؤثر عاجلاً في

سيادة الدولة البحرية وينزعها من يدها . غير ان شيئاً من ذلك لم يكن . صحيح ان أثره المعنوي كان عظيماً فظهر به ان العثمانيين يمكن ان يقهروا وفي دائرة الامور المستطاعة عليهم والانتصار عليهم ولكن كان هذا فقط ولم تكن نتيجة معركة ليباتو لتؤثر في التوازن الدولي البحري في بحر الروم أو تغير الحالة السابقة لها . ولم يكد المتحالفون يخرجون من المعمان ظافرين حتى تفرقوا وعاد كل فريق الى وطنه وعادت كل طائفة من سفائهم الى مستقرها ومرساها وأخذوا يبطلون وبزمرن وبقيرون الحفلات والولائم والصلوات ابتهاجاً بما أنعم الله من النصر المبين على أعدائهم العثمانيين . ثم أخذوا يتشاحنون واختلّفوا فيما بينهم على جاري عادتهم . فاما الترك فعادوا من فورهم وساعتهم يلمون شعهم ويجمعون متفرقهم ويرمون ويصلحون ما أصابه العطب من مراكبهم وأخذوا ينشئون غير ما أحرق وغرق حتى كمل لهم في عدة أشهر أسطول عظيم كونه بقوة الجيابة وأفعال السحرة وكانت عدته ٢٥٠ سفينة . فلما رأى البنادقة من العثمانيين هذه الهمة القعساء وأنهم عادوا فصاروا أصحاب العز والسلطان في بحر الروم خافوا مغبة ذلك وطفقوا يتوددون الى العثمانيين وعقدوا معهم صلحاً على قاعدة الاعتراف بملكية السلطان لجزيرة قبرص وقيامهم مع هذا الاعتراف بدفع غرامة حرية باهظة بها عوض على الانراك نفقة الاستيلاء عليها خير عوض . وكذلك زال أثر معركة ليباتو السيء من أذهان العثمانيين

وساد السكون بعد ذلك بين البنادقة والعثمانيين مدة ربع قرن من الزمان وكان هذا بفضل تقوى النساء لا مراعاة حرمة معاهدات . وكان مراد الثالث الذي خلف أباه سليمان سنة ١٥٧٤ ضعيف الرأي عاطل الذهن غير موفق الى عمل صالح ولا مسوق الى خير فكانت الوظائف لعهدده تباع يبعاً ويتولى الامور خساس الناس وأسافل القوم وكان هو نفسه فريسة تأثير جماعة من النساء والحظيات وكان من جملتهن امرأة عرفت بذكاؤها وحسن رأيها تدعى صفية . كانت صفية هذه من سبي البندقية ومن أسرة بفو الشهيرة وأدرت منزلة عظيمة بين نساء السلطان وجواربه وملكت عليه قلبه فتسلطت على الامور وأخذت بزمام الشؤون فاجرتها على ما يوافق هوى ابناء جلدتها القدماء من البنادقة . فلما مات زوجها وخلفه ابنها محمد الثالث - أحد اولاد مراد الثالث وكانوا ١٠٢ قتل منهم ١٩ بأمر أخيه محمد الثالث لدى تبوئته العرش - أصبحت لديه أيضاً صاحبة أمر غير راجع ولها من الامر والنهي ما كان لها أيام ابيه . وكان من اقرب

المقربين اليها رجل يدعى سقالا من أشراف الايطاليين بجنوة كان قد وقع في أسر الترك وهو صغير وكان ابوه الذي يدعى الكونت سقالا قد تزوج من امرأة من سبي الترك فسار الولد في اثر ابيه وتزوج بتركية من حفيدات سليمان القانوني. ويمكن سقالا بما له من المقدرة والمواهب والذكاء مع الحظوة عند والدة السلطان من التدرج في سلم العلياء والتقلب في مناصب الدولة الخطيرة. وفي ١٥٩٦ خدم وطنه الجديد تركيا أجل خدمة وذلك ان جيوش النمسا ورايسلوانيا كانت تتطاحن وتتصارع في معركة هائلة استمرت ثلاثة ايام كوامل وكانت رايات النصر تكاد تنحرف على القوى الاوربية وهم السلطان بالهرب من سهل كرزت دفعتين لولا ان قيص الله لنصرة جيوش العثمانيين سقالا هذا على رأس جماعة من فرسان الترك فاقتحم الصفوف وانقض على الاعداء كالصاعقة وما هي الا نصف ساعة حتى وات عساكر النمسيين الادبار لا تلوي على شيء. وكان أسبقها الى الهرب الارشيدوق والامير حتى اختلط الحابل بالنابل وعظم الهرج وصاروا أخلاطاً بهم على وجوهها تلمس النجاة من وجه الترك بعد ان كانوا جيشاً منتظماً يساجلهم الحرب ويكاد يفوز عليهم ويهزم وترك النمسيون ٥٠ الفاً من الجثث الهامدة على الثرى

على ان هذا النصر الذي اوتيته الترك على يد سقالا كان كالغرة البيضاء في الاديم الاسود او كوميض البرق في الظلام الدامس لان العهد كان عهد فتن داخلية وحروب خارجية غير ذات شأن: ثورات حكام وفساد أحكام وفوضى وارتباك واحتلال أمر واضطراب جبل. وما يدل على هبوط الدرلة وأقول نجمها وزوال عزها وغروب شمس مجدها انها في عهد السلطان التالي وهو احمد الاول وكان غلاماً لم يتخط الرابعة عشرة عقدت بعد حروب طويلة مع النمسا عاملتها بها معاملة النظير بعد ان كانت سيدة والنمسا مسودة تأمر فتسمع وتقول فتتبع. هذا فضلاً عن انها بمقتضاها منعت الجزية المقررة وأصبحت النمسا في حل من الوقوف تجاهها مرفوعة الرأس محترمة الجانب قوية عزيزة بعد ان كانت تابعة ضعيفة ذليلة. نعم صارت تركيا منذ العهد الذي نحن بصدد دولة عادية لا يخيف شبحها ولا يهرب جانبها وتدلّت من درجات العز والسيادة الى درك الذلة والضعف بحيث صارت بطمع في املاكها وبعدي عليها بل كانت اذ ذلك قد بلغت حدّاً من الضعف ومقداراً من الوهن وبلغت من الاختلال والاعتلال ما كان يمكن معه اقتسامها لو أجمعت الدول الاوربية على ذلك ولم تلهها



الحروب الاسبانية . نعم كانت دول اوربا في العصر المذكور منصرفه عن الاتحاد على الدولة العثمانية الى مشاكل خاصة بهن وحروب متعلقة بمطامع البعض منهن في البعض الآخر والا كان يكون انتهاب املاكها من الامور الميسورة والحوادث الواقعة ولا سيما ان انكلترة ( مع وجود سفير لها منذ عصر الیصابات سنة ١٥٨٣ ) لم يكن حينئذ في استطاعتها ان تنصر تركيا على اعدائها لو كان اجتمع على اقتسامها جماعة منهم ولم تكن قد دخلت سلطنة الهند في حكمها فلم تكن قد تقررت سياستها المتعلقة بالشرق الادنى بعد تلك السياسة التي ولدها صيرورة الهند من املاك انكلترا والتي جعلت المصالح الانكليزية والعثمانية في ارتباط . لذلك لا نبالي اذا قلنا ان اقتسام الدولة العثمانية وقد وصلت الى شفا الخراب والدمار كان يمكن ان يتم اذ ذلك ولم يمنع حصوله الا اختلاف دول اوربا وتشاحننا بذلك على صدق ذلك ان السير نوماس رو رئيس البعثة الانكليزية في الاستانة في ذلك العهد الف كتاباً عن رحلته الى بلاد الدولة وفيه يقول ان دولة الاتراك العثمانيين كما بلوح له صائرة الى العدم

على ان السكينة عادت فشملت الحدود الشمالية للسلطنة العثمانية وكان امبراطور النمسا اذ ذلك غير غافل عن عظيم الفائدة التي تعود على بلاده اذا هو حافظ على عهود الولاء والصفاء مع الدولة العثمانية ولم يشتغل معها بحرب يلهو بها عن حروب الثلاثين سنة الشهيرة التي كانت تتأجج نيرانها ويستمر اوارها في حدود بلاده الشمالية . كذلك لم يكن في نفوس الترك مطمع الى الاعتداء على النمسا اذ ذلك وكان السلطان الجديد الذي تسلم عرش الخلافة عام ١٦٢٣ باسم مراد الرابع من الامراء الذين يجري في عروقهم دم الشجاعة والنخوة الذي كان يجري في عروق أسلافه السلاطين العظام . غير انه اثر أن يكون مشهد شجاعته وفروسيته ميداناً آخر غير الميدان النمسي ولذلك عقد مع الامبراطور معاهدة جديدة بها أمن على الحدود التركية الشمالية في النصف الاول من القرن السابع عشر

كان مراد الرابع آخر السلاطين الشجعان المحاربين من سلالة عثمان وقد جعل فارس هدفاً لاطماعه . وقد اصاب العثمانيون لعهد مراد الثالث انتصارات باهرة ثم عقدوا مع الشاه صلحاً سنة ١٥٩٠ وبه أخذ الترك جورجيا وتبريز وبعض العائلات الفارسية الواقعة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر . على ان هذه الملحقات لم تمنح ذكرها

الاليمية من أذهان الفرس فحاولوا المرة بعد المرة استعادتها وتم لهم ذلك أخيراً بمقتضى معاهدة سنة ١٦١٩ التي جعلت الحد الفاصل بين المملكتين الفارسية والتركية كما كان أيام أسلم الأول وهكذا استرد الشاه ما فقد من بلاده وأقاليمه . لذلك عزم مراد الرابع على إعادة فتوحات سلفه وسميه . على أن المصاعب العظيمة قامت تعترض حكمه وتمرقل أسيره فانه كان عند تبوئه العرش ولدماً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره وكانت دولته في حاجة ماسة شديدة الى يد قوية تقبض على زمام الامور . فكانت المصائب والثورات تتأجج في كل مكان وكان الفرس متتبرين فأزبن وآسبا الصغرى فريسة الفتن والولادة متمردين كل يود الاستقلال بما تحت يديه من الاقاليم والبقاع فضلاً عن ان ولايات أفريقية الشمالية الثلاث كانت تكاد تكون مستقلة عن الاستانة في كل شيء . كذلك كانت خزانة الحكومة خاوية على عروشها والمجاعات ناشبة اظفارها بالسكان في كل مكان وأفراد الجنود ووحدات الجيش على شرم ما تكون من الفحة والتمرد وسوء النظام . واستطاع السلطان الفتى بمعاونة امه الفادرة ان ينشر سلطته ونفوذه بنوع ما وسط هذه المخاوف وامام هاتيك الصعاب وقد اصابه في سبيل ذلك كثير من الشر ولحقه عظيم من الاذى والصغار . ففي السنة التاسعة من حكمه ثارت جنود السباهي واجتمعت جموعهم في ميدان السباق من الاستانة وطلبوا من السلطان اعدام جماعة من الكبراء والعظماء وفي مقدمتهم صدره الاعظم حافظ باشا وقد اقتحموا السراي السلطانية وصاحوا بصوت واحد قائلين يزيد رؤوس السبعة عشر الذين طلبنا قتلهم . وكان لابد للسلطان من أحد أمرين الرضوخ والاذعان لهم أو الاعترال . وعبئاً حارل تهدئة نائرهم واقناعهم بالحجة ولما أعباه الأمر أرسل في طلب الصدر الاعظم ولم يكن حافظ باشا ليتأخر عن تلبية نداء مولاه كما انه لم يجبن أو يحاول فراراً وإنما قابل القدر بالرضاء وقال لقد رأيت في المنام رؤيا هذا تأويلها ولست بخائف ولا أنا أجزع من الموت وأبت مكارم أخلاقه واخلاصه الا أن يموت فداء مولاه . غير انه اعتد للدفاع عن نفسه وتقدم لقتال الاشقياء المتمردين ثم وجه الكلام الى السلطان وقال أموت ويموت الوف مثلي فداء مولانا وخليفتنا . وبعد تلاوة بعض آي القرآن الكريم بارح الردهة مشياً بدموع وتأوهات مراد ومن معه وقتل حافظ باشا اول من هجم عليه من الاشقياء ثم خر مضرراً بالدماء مطعوناً سبع عشرة طعنة . على ان السلطان لم يغادر المسرح الذي مثلت عليه تلك الفاجعة من غير صب اللعنات على اولئك القتلة

السفاكين للدماء الزكية فقال اللهم اني اعوذ بك من شر هؤلاء الشياطين الذين لا يخافون بأسك ولا يرهبون بطشك ولا يرعون لمقام خليفة رسول رب العالمين حرمة اللهم فانزل عليهم اللعنات وسلط عليهم من ينتقم لاولئك الابرياء الذين قتلوا على غير ذنب وهلكوا من غير جريرة

والنف حول السلطان جماعة من الاجناد المخلصين استعان بهم على توقيع العقاب الشديد بتلك الجنود الثائرة التي قتلت وزيره الامين حافظ باشا . وقد تحنطت بامرہ رسل الموت ارواح اولئك العصاة في كل اقليم وبد وضاعت مياه البوسفور بمحبت من ألقى فيه من قتلى السباهي والانكشارية وزاد السلطان جرأة وهيبة في عيون الناس وكان سيد من ينتضي السيف ويسدد السهم تخافته الرعية وملئت قلوب اهل البني والفساد خوفاً وكان يمر بالشوارع والطرقات فلا يرى أحداً من الاشرار الا استل روحه من بين جنبه قبل ان يرتد اليه طرفه . وهكذا انتقم لحافظ باشا بدل المرة مرات وارتكزت ساطة مراد على أساس من الرهبة مكين وقد غالى في قسوته وتطرف في شدته فادخل الطائع مع العصي وحشر الابرياء في زمرة المجرمين وقتل مئات ممن لم يجرموا ولم يذنبوا وكان يأخذ بالظنة وكانت كلما كثرت ضحايا شهبانه كلما زادت شهوته وحبه لسفك الدماء . يقول المؤرخون ان جملة من قتلوا في عهده بامرہ مائة الف وكان يشرب الخمر فكان كلما شرب منها كلما تعطش الى شرب الدماء . على ان شهوة شرب الخمر وغيرها من الشهوات ما كانت لتفعل له عزماً او تقلل له حزمأ او تخفف من نعرته الحربية وشجاعته العظيمة الحديدية وكان ينظر في كل أمر من غير كمال ومن غير ملل ويرسل عين عنايته الى سائر اركان الحكومة والادارة فكان يشرف ويهيمن ويرقب الامور فانتشر العدل وساد الامن وحسنت الاحوال واصبح الناس وكان سليمان القانوني قد بعث فيهم خلقاً جديداً . صحيح انه كان مستبدأ بل كان غاشماً ولكن الناس آثروا ظلم الواحد على ظلم الجماعة بل آثروا العيش في ظلال حكم الفرد القاهر على العيش في ظلال حكم الاكثرين الهيجي . ولما علم انه قطع دابراهل الفساد وضرب على ايدي الاشرار غادر الاستانة ليعيد الامن الى نصابه في تخوم السلطنة الاسيوية فاسترد اريوان سنة ١٦٣٥ وعاقب بعض عماله في آسيا الصغرى عقوبات صارمة وقد قضى الاساييع والشهور ولا وسادة له الاطعم فرسه . وفي سنة ١٦٣٨ زحف على بغداد لاستخلاصها وكانت في ايدي الفرس منذ ايام سليمان القانوني وقاومت

حاميتها مقاومة اليأس وقالت قتال المستميت ولكن مراداً كان يقود الجنود بنفسه  
 لحرب أهلها وكان يعمل في حفر الخنادق مثل عامة الجند. ولما أرسل حماة بغداد رجلاً  
 قوي الجسم مقتول العضل العظيم القائمة ليدعو العثمانيين الى المبارزة انبرى مراد نفسه  
 لمبارزته وما هي الا ساعة تفضت في النضال الشديد حتى شق مراد خصمه نصفين  
 من أم رأسه الى أسفل فكه. ولا يزال زرده السابع المصنوع من جداول الحديد  
 والذهب معروضاً للانظار في متحف الآثار بالاسنانة شاهد عدل على بأس مراد  
 الرابع العظيم. ولما سقطت بغداد قامت المذابح فيها على ساق وقدم ولم يسلم من حاميتها  
 التي كانت نيفاً وثلاثين ألفاً غير ثلاثمائة ولم يكن حظ سكانها التعماء بخير من حظ  
 حمانها المساكين. وعقد الصلح بين الترك والفرس على قاعدة معاهدة سليمان التي أبرمت  
 سنة ١٥٥٥ ورددت اربوان الى الشاه ولكن بغداد صارت تابعة للعثمانيين من عصر  
 مراد الرابع الى قبيل وقتنا هذا الحاضر. وعاد مراد الرابع الى الاسنانة ودخلها  
 دخول الفاتح العظيم والبطل الكبير وجرى لاستقباله احتفال فخم لم تر الاسنانة مثله  
 واستقبلته رعبته بالحفاوة والتهنئة الشديد واقامت على ضفاف البوسفور والقرن الذهبي  
 أنوار الزينة البهيجة وكانت تشق شهب الالعب النارية جوف الفضاء ويكاد يصل تهليل  
 القوم الى عنان السماء

وفي السنة التالية ( سنة ١٦٤٠ ) توفي مراد الرابع وهو في اثنامنة والعشرين  
 من عمره وهو آخر سلطان شجاع محارب من سلالة آل عثمان

## الفصل الثاني

سلطة الوزراء ١٦٤٠ - ١٧٥٧

أسرة كبرلي - كبرلي محمد - كبرلي زاده أحمد - موقمة سانت جنتار - مونتكو كولي -  
الاستيلاء على كريد - موروياني - الحرب مع بولندة - يوحنا سويسكي - موقمتا خوكرم  
ولبرج - قره مصطفى - غزوة النمسا - حصار فينا الثاني - نجدة سويسكي - التزام الترك  
وسلامة فينا - محمد الرابع وجه الالهو والصيد - معاملة السفراء - موقمة موهكس الثانية -  
استرداد بودا - موروسيني في اليونان - كبرلي زاده مصطفى - الحرب مع النمسا -  
موقمة سلانكن - مصطفى الثاني - موقمة زانته - توسط اللورد باجت - صلح كارلوتز -  
استيلاء البرنس يوجين على بلغراد - صلح بيساروفتز - زوال هيبة تركيا

من موت السلطان مراد الرابع الى قيام السلطان محمود الثاني في القرن  
التاسع عشر وزمام دولة الاتراك العثمانيين بأيدي جماعة من الوزراء. نعم كان أكثر  
السلطين العثمانيين الذين خلفوا مراداً الرابع خاملين ضعفاء ليس في سيرهم وأعمالهم  
ما تليق تلاوته ويحسن التحدث به فكانوا رهنا السراي السلطانية حلفاء الكاس  
والطاس عاكفين على ما يضعف البدن ويميت النفس من الموبقات تاركين جبل  
الامور على غاربها جاعلين زمام الامور في أيدي كبار الموظفين الذين كانوا يسوقون  
البلاد نحو الشقاء بقدوم سريعة أو بطيئة حسب مقدرة كل منهم . وقد أتاح الله للدولة  
في مفتتح العهد الذي نحن بصدده أسرة البانية شهيرة عرف رجالها بالذكاء والقدرة  
واشتهروا بالاخلاص فاليهم يرجع فضل توقيف عوامل الانحلال في تركيا حيناً من  
الزمان وكان أولهم كبرلي محمد اختير لمنصب الصدارة سنة ١٦٥٦ وهو في السبعين  
من عمره . كان كبرلي محمد شديد البأس صعب المراس قاسي القلب مر الاتقام فنشر  
الخوف والفرع في كل مكان وعمل على إعادة النظام بين الانام . كان نافذ الرأي بصيراً  
بالامور له في قلوب الحكام والولاة هيبة وعلى أعمالهم رقابة ولو كانوا في أبعاد أطراف  
المملكة وكان الامر أمره والنهي نهيهم في كافة المرافق وسائر الشؤون مدة خمسة أعوام  
ويقال ان جملة من قضى عليهم كبرلي هذا ٣٦ ألفاً وقد زعم رئيس الجلاذين لمهده  
ان جملة من قتلهم هو وحده بأمر الوزير أربعة آلاف بمعدل ثلاثة في اليوم الواحد .  
وقد كان كبرلي محمد معروفاً باعتداله ورفقه قبل ان تسند اليه مهام منصبه الخطير ولسكنه

وجهد ان الكلمة متفرقة والامور مضطربة وعفريت الحراب والدمار والفوضى منطلقاً يعيث في أرض السطنة فساداً وعلم ان لا دواء لهذه الادواء الا الشدة والصرامة فضى في سبيلهما غير متردد ولا ملتفت الى الوراء حتى تم له ما يتم لكل مستبد عادل وتوفي سنة ١٦٦١ خلفه في منصبه ابنه أحمد وكان أبعد منه شهرة وأخذ منه ذكراً . كان كبريلي زاده احمد صدرأ أعظم مدة أربع عشرة سنة وهو السكل في السكل أو هو السلطان الحقيقي صاحب الامر النافذ والرأي المطاع وقد أجمع سائر المؤرخين على انه أبرع سياسي أنجيتته تركيا في كافة العصور والقرون والازمان وأخذق مدير للامور برز في دولة ال عثمان . وكان مثل أبيه قوي الارادة شديد الاهتمام باداء الواجبات ولكنه كان أكثر من ابيه تلمأ واطلاعاً وتفصيلاً وقد تعلم من أبيه ما لم يتعلم أبوه من احد وكان في التنظيم الادارى بارعاً لا يباري ولكنه كان في ميدان الحروب قائداً غير دائم التوفيق

وكان منصب الحكم في المجر وترنسلوانيا محاطاً دائماً بالدسائس فاضطرت تركيا بسبب ذلك الى محاربة النمسا . وكان على كبريلي زاده احمد أن يقود جيشاً عثمانياً الى ضفاف الطونة في موقعة سانت جنتار التي نشبت سنة ١٦٦٤ انكسرت كتائبه وظهر عليه ريموند أمير مونتسكوكولي وكانت نسبة جيش الاوربيين الى جيش العثمانيين كنسبة واحد الى أربعة . وزاد الترك غروراً انهم رأوا افراد الفصائل الفرنسية من الجيش الاوربي قتياناً مردأ مخنثين فاستهزأوا بهم وقالوا ما عسى أن تفعل هذه البنات معنا . على ان هؤلاء البنات وبقية جيوش مونتسكوكولي كانوا خير من يصد الاتراك العثمانيين ويقل جموعهم بحيث بلغت قتلاهم عشرة آلاف واضطر قائدهم الصدر الاعظم أن يعود متعثراً في اذيال الخيبة والفشل

على أن الله عوض الترك في كريت خيراً وذلك انهم وجهوا عليها حملة وجيشاً عظيماً وكان صيتهم لا يزال عظيماً في أعمال الحصار . ومع انهم قضوا عشرين عاماً قبل أن يستولوا عليها ويقهروا حاميتها الباسلة من البنادقة بزعامة البطل موروسيني فانهم نجحوا أخيراً سنة ١٦٦٩ في مهمتهم وأصبحت كريت ملكاً لهم وفي السنوات الثلاث الاخيرة افتحم الترك أسوار عاصمتها المدافعة ٥٦ مرة وبرز حماتها لقتالهم تسعين دفعة وقد بلغت جملة الالغام المستعملة ١٣٠٠ وجملة من قتل من الترك ٣٠ ألفاً ومن البنادقة نحو نصف هذا العدد . هذا واستمرار الترك على هذا الحصار هذه المدة الطويلة من

غير يأس أو تردد أو ضعف أو وهن ومن غير التفات الى كثرة الضحايا وتعاطم الخسائر حتى يدركوا وطرحهم ويقضوا لباتهم مما أكبرهم في عيون الناس وأعاد الخوف والرهبه منهم الى النفوس

على أن النجاح في الاستيلاء على كريت كان كالنرة البيضاء في الاديم الاسود وقد ظهر للأتراك عدو لدود وخصم عنيد في الشمال . وذلك أن القوازق الاوكرانيين التمسوا معونة الترك حينما أرغمهم ملك بولونيا على التبعية له فانبرت السلطنة للدفاع عنهم وكانت مدة الحرب والخصام قصيرة انتهت بتزول ملك بولونيا عن مطالبه وقرر على نفسه دفع الجزية وأعطى خصومه فوق ذلك أقليمي بادوليا واكرانيا . على أن أشرف بولونيا وأعيانها بزعامه حنا سويديكي القائد الشهير أبوا موافقة الملك على شروط الصلح مع الترك وقالوا بل فقاتلهم الى النهاية وبالفعل عبثت الحيوش العظيمة التي كسرت الأتراك في واقعة خوكوزم سنة ١٦٧٣ وموقعة لمبرج سنة ١٦٧٥ على ان العثمانيين كانوا أكثر جلدأ من أشرف بولونيا على اطالة الحرب ومع انتصارهم عليهم رضوا بمصافاتهم ومصاحفتهم على قاعدة الشروط التي أجابهم اليها ملكهم

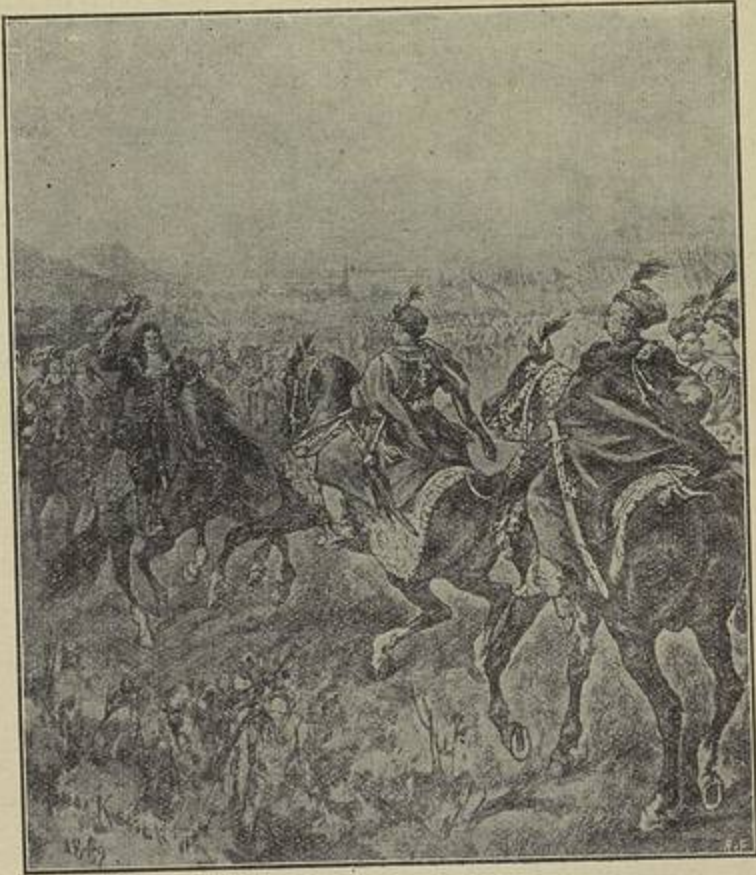
وتوفي كبريلي احمد زاده وقد أضاف الى السلطنة أملاكاً جديدة مع ان جيوشها مكسورة . على ان اوكرانيا صارت الى روسيا بعد ذلك بزمان وجيز ولما ضعف شأن أسرة كبريلي وولى الصدارة رجل ضعيف من غير أفرادها زادت سرعة سير السلطنة في طريق الشفاء والانحطاط وحالف الانكسار جيوشها في كل مكان . وكانت العلاقات بين النمسا والمجر في هذا الاوان قد زادت فتوراً وأخذت الاولى منهما تحرش بالثانية وتتشدد في معاملتها وكان الذين يدينون بالمذهب البروتستانتي من أهل المجر يكرهون تنطع اليسوعيين واضطهاد الكاثوليك لمن خالف مذهبهم ولذلك نشأت المؤامرات واقامت اسواق التعذيب للمتأمرين من المجر على ساق وقدم وكل هذا لم يكن ليزيد المجر الا كراهة في النمسا . وعلم الناس ان أعيان المجر يؤثرون سيادة العثمانيين على سيادة المنتظمين المتشددين من الكاثوليك وكانت حكومة الاستانة على علم تام بما جريات الامور وحقائق الاحوال ونشأ في عاصمة السلطنة حزب حرب قوي طائش الرأي غير بصير بالامور طلب محاربة النمسا والزحف على فينا في وقت هو أحسن الاوقات للاعتماد على تعضيد المجر ومؤازرتها . فانهز الصدر الاعظم الجديد قره مصطفى هذه الفرصة السانحة للقضاء على أسرة الهابسبرج المقوتة قضاء

مبرماً فزحف شمالاً في سنة ١٦٨٢ على رأس جيش عظيم جداً مؤلف من ٤٠٠٠٠٠ عليهم بعض ضباط من الفرنسيين وفيهم مهندسون منهم أرسلهم لويس الرابع عشر لأنه كان يكره النمسا كراهة شديدة ويود لو تسحق أسرتها الامبراطورية سحفاً وتذهب ربح النمسا ويمحق أثرها . وظهر كأن النجاح من نصيب الترك وكان الاوربيون كما هي عادتهم على غير استعداد لمقاومة القوة بثمتها وذلك أنه كان من عادة أمراء اوربا بمجرد أن يروا الترك عائدین الى بلادهم منصرفين عنهم أن يفرقوا مجتمع جيوشهم ويفصموا عزوة كنائبهم ويهملوا شأن حصونهم ومعاقلمهم ثم يتفرغون للتشاحن والتطاعن والاختلاف فيما بينهم غير حاسبين لعودة الترك حساباً . ولذلك لم يكن بين أمراء اوربا من اعتد لمقابلتهم وهم قادمون بقيادة قره مصطفى غير كارلوس اللوريني الذي قاتل في موقعة سانت جتارد برفقة مونتكوكولي . على أنه لم يكن ليستطيع أن يمشد أكثر من ٣٣ الف مقاتل وهم قليلون بالنسبة الى جموع الاتراك العثمانيين ولا تكفي بقيتهم ( بعد أخذ بعضهم لحراسة المعامل والحصون ) للوقوف في وجه الاعداء برهة من الزمان . وقد كان يكون انتصار الترك محققاً لولا تحالف الامبراطور النمسوي ليوبولد وسويديسكي الذي جعله البولونيون اذ ذاك ملكاً عليهم . وقد تعاهد الملكان وعقدا الحناصر على الاتحاد والعمل معاً وأقسما الايمان المغلظة أن لا يفرط لهما عقد ولا تنحل لهما رابطة ولو أراد البابا نفسه ذلك وقد أقسما هذه الاقسام أمام مندوب البابا ليكون للقسم صبغة دينية . ولكن تعاهد الملكين على عدم الانصياع لامر البابا اذا أراد التفرقة بينهما مع وجود ممثل له من غرائب التاريخ

وكان حنا سويديسكي اثناء زحف الصدر الاعظم على فينا لا يزال في بولونيا مع انه قطع العهود على نفسه مع الامبراطور ان يكون في عونته . واذ قنط هذا وحاشيته من معونة محالفهم وقد صار العدو على الابواب هرب الى بافاريا وكانت فينا على شرماتكون مدينة خرج منها ملكها ونحلى عنها خواصها ضئيفة غير محصنة لا حول لها ولا قوة ولا قبل لها بالثبات امام قوم كالترك عرفوا بالمهارة في أعمال الحصار . ولا نبالغ اذا قلنا ان فينا كان يعوزها الآلات اللازمة لترميم حصونها المتهدمة وهذا نهاية في فساد الحال وخيبة الآمال . غير ان أهل فينا قد كتب الله لهم السلامة على يد قره مصطفى وكسله وتباطئه فانه ضيع فرصة لم تعد بعد وتلك في الزحف ولو كان ماضي الامر نافذ العمل صحيح العزم سريع الوثبة لدخل عاصمة الامبراطورية الرومانية



المقدسة على أهون سبيل . ولكن هي الخفاقة وعمى البصيرة وفساد الرأي وسوء التدبير  
يجر على الدول أشأم النتائج ويفقدها فرصاً هيبات ان تعود . وذلك ان أهل فينا أفادهم  
تأخر قره مصطفي وصاروا في فسحة من الزمن تمكنوا فيها من اتخاذ الابهة



مقابلة ليوبولد امبراطور المانيا وسويسكي ملك بولونيا بقرب فينا سنة ١٦٨٣

واعداد العدة للمقاومة بزعامة الكونت ستاهر مبرج الذي نفخ في السكان روح الغيرة  
والنخوة فانبثروا على بكرة أبيهم الى العمل في ترميم الاستحكامات واصلاح الحصون  
بهمة لا تعرف الملل وعزيمة لا يزغزغها الكلال . وائف تلاميذ المدرسة الجامعة  
واعضاء النقابات الصناعية من انفسهم جيشاً وأخذوا يتدربون على الحركات العسكرية

المسئلة الشرقية

والقنون الحربية بعزيمة الراغب وهمة الوطني . وكان سكان المدينة عند قدوم الترك قد هبط عددهم الى ٦٠.٠٠٠ (لهروب اكثر من نصفهم خوفاً) فمن هؤلاء تقلد السلاح للدفاع عشرون الفاً وقفوا لصد الترك عن عاصمة بلادهم وقصبة مملكتهم وحماتها مما أصاب ما حولها من القرى والبلاد التي استولى عليها العثمانيون وجعلوها طعمة للسنيف والنار . ثم صدرت الاوامر بحرق ارباض فينا حتى لا تكون ردياً للعدو المهاجم وابتدأ الحصار في الرابع عشر من يوليو وسقطت قرية «ليوبولد ستناد» الواقعة على جزيرة في الطونة قريبة من فينا في يد الترك فاضرموا فيها التيران وأخذ العثمانيون يشددون الهجوم وكما هجموا صدوا أو اقتربوا ردوا وكان أهل فينا يفسدون على الترك الألغام التي كانوا يريدون بها هدم الاسوار . على ان حسن دفاع السكان الشجعان لم يمنع الترك من التقدم قليلاً قليلاً والنجاح شيئاً فشيئاً وكان ستاهر مبرج يرى ويعلم ذلك من مرقبه بالي كنيسة سان اسطفان وملء قلبه الاسى والاحزان

وكان أهل فينا بما لديهم من السلاح الجيد يردون الترك عن أسوارهم مخذولين غير ان هؤلاء كانوا يتقدمون بفضل الألغام كما ان السكان كانوا فريسة الامراض والابوثة الناشئة وطعمة القحط الذي جاء في أثر تلك الامراض وعز القوت بحيث صار للسنابر قيمة وكان السعيد من وفق الى اقتناصها بعد مطاردتها على أسطح المنازل . وكان النمسيون يعلون ان جيش النجدة قادم ولكنهم كانوا يتساءلون فيما بينهم هل تراه يأتي في الوقت المناسب وهل عساه ينجح في رد الترك الذين وان كان عددهم أخذ في التناقص الا أنهم كانوا لا يزالون أكثر جندياً وأعز نفراً

وفي السادس من سبتمبر أعلنت السهام النارية اقتراب سويسكي فزاد السكان همّة ونشاطاً وعظم أملهم بقدوم القائد الشجاع . وكان قد جمع جيشاً من البولونيين والسكسون والنمسيين والبافارين وغيرهم فكانت حملته خمسة وثمانين الف مقاتل وأسرع الى احتلال موضع يقال له كاهلنبرج به دون غيره يستطيع تخليص المدينة ودفع الاعداء عنها . وكان لافراد جيشه ميزة النشاط بخلاف المائة الالف جندي التي كانت تحت يد الصدر الاعظم فقد كانت وصلت الى حد عظيم من الاعياء والتعب والسامة بعد مضي شهرين طويلين تحت أسوار فينا معرضين للدغ الجوع وتقلب الاجواء ومتحملين مشقة التعب العظيم والجهد البالغ . وفي العاشر من الشهر سمع أهل المدينة صف المدافع من صوب كاهلنبرج ولا غرابة فقد كان النضال بين الفريقين قد

قام على ساق وقدم . وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر به يمكن الكشف عما كان يخالج نفوس أهل عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة وقصف المدافع يدوي في آذانهم . لا شك انهم كانوا فريسة الهواجس والخاوف ساعات عديدة وكيف كان يمكن أن لا يكونوا كذلك وقد كان على الموقعة الدائرة حولهم يتوقف مصير دولتهم ومصير الامبراطورية الرومانية المقدسة ومصير أوروبا بل مصير العالم أجمع فلنترك السكان وقد ركبهم الخوف وساورتهم الهواجس ولننظر فيما أخذته سويسكي من الاجراءات لرد الاعداء عن المدينة

في شروق الشمس من يوم ١٢ سبتمبر حجبت رأس الكمة كاهلنبرج قطعة من تلك السحب الخريفية التي تبشر بيوم صحو وجو دافئ جميل وقد أهدرت تلك السحابة من رأس الكمة الى سفحها الى غور الارض الى سطح ماء النهر فغشته كأنها نقاب خفيف . وكان الواقف على رأس الكمة يرى شواظاً من النار تنبعث من برج كنيسة سان اسطفان وتشق كبد السماء علامة استغاثة السكان واعلاناً لطلبهم المدد والمعونة وتلك الكنيسة العتيقة وما شخص منها تبدو مع ذلك للناظرين خارج المدينة كما تبددت سحب الضباب التي تغمرها من كل جانب سليمة لم يؤثر فيها ضرب مدافع الأتراك على غير هدى . ولما راق الجو وصفا أديم السماء وبدا كل جزء من أسوار فينا واستحكاماتها رأى الراؤون من الخارج ثغرة عظيمة جداً في الاسوار يمكن أن تدخل منها المدينة فرقة كاملة وعلى مقربة من هذه الثغرة عمال الترك ينقرون الارض ويضعون فيها الالغام ليتسع الحرق وتعظم الثغرة والجنود وراءهم في انتظار الامر بالهجوم والافتحام وقد خات المضارب والحيام من الضباط والجنود ولم يبق فيها غير حريمهم وعيالهم لان السكك كانوا قد اصطفوا أمام الاسوار صفوفاً استعداداً للافتحام كما قلنا وخلفوا وراءهم خلاف حريمهم وعيالهم صفوفاً طويلة من أسرى الاوربيين المصفدين في الاغلال ينتظرون ساعة القضاء عليهم هذا فضلاً عن الالوف المؤلفة من الجمال ودواب الحمل مع رعائها وشانقياها مما جعل المسكر العثماني كأنه مدينة عظيمة مضطربة تارة تتخطفها عوامل اليأس وأخرى تدب فيها حواس الآمال . وكنت ترى ايضاً بقرب قواعد الكتي كاهلنبرج وليوبولدبرج صفوفاً من العساكر العثمانية واقفة لسكر أوروبا تقاتلها دون الهبوط من الممرات والشقوق التي في جوانب الالكات وتريد منعها من الانحدار على السهل الذي هم فيه . وكان الاوربيون يرتقون السفح

الغربي البعيد ويبلغون قننه ويريدون الانحدار من السفح الآخر الذي ترهبس بأسفله الترك لهم فلما بلغوا قمة أكمة ليوبولد برج أحاطوا بكنيسة صغيرة عليها وجعلوا منهم شكل نصف دائرة فلما دقت نواقيس صلاة الصبح كفف السائرون منهم عن المسير والمرتقون عن الارتقاء ووقف الكل صامتين خاشعين كأن على رؤوسهم الطير وقد أفسحوا امام الكنيسة الصغيرة ( كنيسة مار جريفي ) مكانا وغرسوا فيه عالماً أحمر اللون فيه صليب أبيض وكأنهم يتحدثون علم الترك الأحمر الخافق امام مضرِب الصدر الاعظم قره مصطفى . ولما خفق العلم الصليبي امام الجمع المحتشد من الاوربيين نجحوا وصاحوا قائلين نقاتل أعداءنا الترك ونجاهدهم حتى نجايهم عن البلاد . وكان يجيل للرأي كأن الحروب الصليبية القديمة التي نشبت من أجل بيت المقدس قد بعثت من أكناف الماضي ولا عجب فقد كان الاوريون والعمانيون الى عهد قريب لا يرون في الحرب الاعمال دينياً بحري بروح تعصبية . ولما صاحوا صيحتهم عادوا الى السكون والصمت ثم فتحت أبواب حصن مجاور للكنيسة وبرز منه موكب فخيم عظيم جليل مؤلف من أعيان اوربا وكبراء وجوه الامبراطورية الرومانية وزعماء المروءة واخوان النجدة وأهل نصرة الصليب برزوا كلهم في أحسن ملابسهم الحربية وفي مقدمتهم راهب طويل اللحية مهيب الطلعة حسن البزة وكان العساكر ينجرون ركهاً ويرسمون علامة الصليب وهو سائر وسط صفوفهم يبارك فيهم ويدعو لهم بنجير وبداه مبسوطتان ذات اليمين وذات اليسار . ولم يكن هذا الرجل الصالح الا « الكابوشين ماركو افيانو » صديق وكاهن الامبراطور وكان معروفًا بتقواه وصلاحه الى ما يقرب من درجة الاولياء المقربين . وكان لا يفارق العساكر في حروبهم ومحنهم وقد حضر هذه الدفعة على جاري عادته يبيت في الجنود روح الاعتماد على الله ولباس لهم صلاة خاشعة . وكان من جملة الامراء السائرين خلفه ثلاثة انجبت اليهم الانظار مقدمهم ووجيهم رجل قد جاوز السكولة قوي العضل مقتول الساعدين عظيم القامة مهيب الطلعة خفيف الحركات حسن الاشارات فصيح اللسان مقصوص شعر الرأس على عادة بلاده التي لا بالشرقية ولا بالغربية أسود الشعر والعينين واللحية وكان حسن هيئته ونظامه منظره يدلان على أنه ملك جندي وجندي ملك ولا عجب فهو قاهر العمانيين وفتح خوكزم الشهير حنا سويسكي وكان على يساره ابنه الشاب الامير يعقوب على رأسه الخوذة وفي صدره الزرد وفي منطقته السلاح الحديث والقديم وكان على يمين سويسكي الهمام العظيم والبطل

الكريم كارلوس اللوريني سلف البيت المالك في بلاد النمسا . وسار وراء هؤلاء الثلاثة جم غفير من كبار أمراء البيوتات الجرمانية . وكان بجوار لويس البادني شاب نحيف الجسم متوسط طول القامة حاد العين نافذ النظر وهو الامير يوجين دوق سافوا الذي كثر ما قاد الجحافل الى النصر وساق الكتائب الى الظفر وتوج باكاليل المجد رؤوس الجنود وعقد النجاح على الاعلام والبنود . وكان مسلحاً بسيف يقاتل به في المعركة المقبلة هذه التي قتل فيها أخوه . وقد صلى بالناس الكاهن ايفانو المشار اليه ووقف معه على مذبح الكنيسة ملك بولونيا الآنف الذكر وكان يختلط بصوت المرتلين قصف المدافع التركية من بعيد على نحو غريب ودوي عجيب

وبعد ان بارك الحبر الاعظم الملك وجنوده أنعم سويسكي على ولده بلقب فارس واجريت الحفلة والصيغ المعتادة في مثل هذا المقام وقد أمره أبوه بالنسج على منوال فارس الفرسان الحاضر في هذا المقام كارلوس اللوريني . ثم وقف ملك بولونيا خطيباً في جنوده البولونية بلسانهم وقال ما معناه :

« أيها الشجعان الامائل والجنود البواسل والاخوان والافاضل

« في ذلك السهل الذي ترون تجدون أعداءنا وقد بلغوا في العدد أضعافنا وهم أكثر مما كانوا في موقعة خوكزيم حيث وطأنا هاماتهم بسنابك الخيل واكتسحنا صفوفهم اكتساح السيل . نعم انا قاتلهم هنا على ارض أجنبية ولكن اعلّموا علم اليقين انا بالحقيقة قاتلهم على ارض الوطن وانا بدفعهم عن فينا ندفعهم عن وارسو وكراكو وليس دفاعنا اليوم دفاع أعن مدينة فذة ومكان واحد ولكنه دفاع عن النصرانية بأسرها والمسيحية بمخازيرها وما فينا الا دره المسيحية وحمى النصرانية . الحرب حرب دينية وكفى . قد دعي جنودنا وسلاحنا بخير ومن مات من اجله الجزاء الاوفى . ألا وانكم تدافعون لا عن ملككم هذا الضعيف المائل بين ايديكم بل تدافعون عن امر ملك الملوك الباقي فانه بعنايته ولطفه وفق سيركم وسدد خطاكم حتى ارتقيتم هذه الذرى وحتى اصبح الانتصار بارتقاؤكم هذا المكان في قبضة يديكم . ألا وان عيون الاعداء موجهة لكم فاذا اعتصموا بالوديان فاناشدكم ان تجعلوها قبورهم ومثاهم . هذا وليس عندي من الاوامر غير امر واحد : سيروا في أثري وتعقبوا خطوي فالوقت قد حان للشبان البواسل ان ينعم عليهم بالقباب الفروسية »

وقد اعتد الصدر الاعظم من الجهة الاخرى للواقعة المقبلة على نحو يخالف النحو

الذي انحاه أعداؤه الاوربيون . فقد زعموا انه قتل الالف الاسير النمسوي صبراً وكانت غالبيتها من النساء اللواتي أخذهن الترك متاعاً ولما انفضت سوق الذبح أخذ يعي . رجاله تعبئة الحرب والطعان فعمل حنا سويسكي علم اليقين انه غريب عن فنون القيادة بعيد عن المعرفة بأساليب الحرب ورياسة الجنود وتسيير العساكر فامتلات نفسه ثقة بأنه عما قليل يصيب من النجاح والفلاح ما يصيب مثله أمام مثل قره مصطفى الاحق . ومرت ساعات عديدة والترك يحاربون حرب الابطال ويقاتلون قتال الرجال لانهم مهما قيل فيهم لا يوصفون بالحين ولا يعرفون بالوهن والحور والقعود عن مقابلة الاخطار . على ان ثبات الجنود البولونية وحمة العساكر السكسونية والبافاربة وحصافة رأي القائد المدرب والزعيم المحنك سويسكي خصوصاً جعلت النصر في جانب أعداء الاتراك العثمانيين وتدفق سيل الجموع الاوربية على معسكر الاجناد العثمانية . فحصل الاضطراب العظيم والفرع الكبير ونكبت هذه الدفعة رابة الهلال أعظم نكبة وحمل الصدر الاعظم بين قومه اللائذين بالفرار وكان تارة يبكي بالدمع المتناثر واخرى يحمر على تعاسة جده العائر وثالثة يلعن ويندد ويلقي تبعة الانكسار على هذا وذاك . وهكذا تبددت جيوش الصدر الاعظم كما تبدد الغيوم الرقيقة في اليوم المشمس الشديد . فاما الانكسارية التعساء الذين أهملهم اخوانهم وتركوهم في الخنادق فقد وقعوا في أيدي الاوربيين وقتلوهم صبراً على بكرة أبيهم وكان مما غنمه أعداء الترك اكثر من ٣٠٠ مدفع و ٩٠٠٠ صندوق من الذخائر و ١٠٠٠٠٠٠ نور و ٢٥٠٠٠ خيمة ومليون رطل من البارود . وكان جزاء الصدر الاعظم على انهزامه الاعداء لان الترك كانوا كأهل قرطاجة يجازون قوادهم المقهورين الجزاء الاوفى على النحو السالف البيان فرج الله عن كربة أهل فينا مرة اخرى وسلمت من أيدي العثمانيين ولم تكن لترى بعد ذلك أعلام الترك وبنودهم وخيامهم من مرقب كنيسة القديس اسطفان . هذا وليس من المفيد البحث في حالة فينا وأوربا لو كان الترك قبض لهم الاستيلاء عليها . نعم كان يكون تغير مجرى التاريخ الاوربي أمراً مرجحاً ولكن ماذا كان عسى الامر يكون اذا لم يستطع العثمانيون الاحتفاظ بها وهم ضعفاء وأوربا قوية فيها كثير من مهرة القواد العظام . لو كان الاستيلاء عليها بواسطة محمد الفاتح لكان احتفاظه بها من البديهيات ولو اجتمعت سائر دول الارض على انتزاعها منه على أن محمداً كان في الفترة التي نذكر تاريخها قد مضى على موته قرنان من

الزمان ولم يكن على عرش القسطنطينية اذ ذلك من هو جد بر بلبس زرده واتضاء سيفه. نعم كانت الامه العثمانية في آخر القرن السابع عشر مجذبة من السلاطين المهرة والقواد المعظام الذين باستطاعتهم تأديب مونتسكوكولي وكارلوس اللوريني والبرنس أوجين ومارلبروه وكان السلطان الذي رضى على جلوسه عند ارتداد قره مصطفى عن فينا خمسة وثلاثون عاماً مفعمة بالحوادث نشيطاً ولكن نشاطه كان في ميادين الصيد والقنص لا في مواطن الطعن والضرب والغزو والفتوح

كان عهد محمد الرابع العظيم الامد (١٦٤٨ — ١٦٨٧) برزخاً بين عهدين : عهد الفتوحات الباهرة والانتصارات العظيمة والاشهرات الادارية والحكومة الجلييلة وعهد السلاطين الضعاف الذين كانوا يتقلبون في مهاد الكسل والراحة بالسراي السلطانية. وفيما كانت الجنود العثمانية في ظل اعلامها مشغولة بفتح كريد كان سلطانهم محمد الرابع يشغل بقنص الغزلان البرية في حراج الاولب ولاريسا وطرنوه وكان يسير بجمعة السلطان في صيده وقنصه بالاماكن البعيدة المترامية الامراء والقواد والوزراء والسفراء. وهكذا انتقلت حفلات السراي السلطانية ومهرجاناتها وما دهبها ولاحبها الى سفوح الجبال وأكباد الصحراوات والقفار وكانت تقام الاكشاك في الحراج الانق ولا يترك مشهد من مشاهد الترف ولا واسطة من وسائل الاستمتاع الا نقل اليها بسرعة الحان فن ردهات غشتها الابسة والمطرزات الادرية الى قاعات أنيقة حلتها المزركشات الهندية الى غرف بدبعة تزري بقصور البوسفور والاسنانة. وكان السلطان محمد الرابع المقتون بالصيد والمناظر الطبيعية الشائقة كثير التنقل بين بروصه وجيبال الاولب الاسيوية وسهول طرواده وسفوح ايدا وضاف الميندر وارباض سارديس واسكن أعز المواضع وأجمل الجهات وأحبها اليه كان موضع يقال له جامبولي على بعد خمسين ميلاً من شمال أدرنه وآخر يقال له طرنوه. وكان اذا حل بمكان أو ارتحل عنه خرج اليه سكان ١٥ جهة من الجهات المجاورة لان الناس كانت كلفة برؤية المواكب والمهرجانات والاحتفالات التي كانت تقام له على نحو يشبه ما كان يجري في بلاد اليونان القديمة وبلاد التتر. وكانت مواكب أهل الصناعات والحرف حيث يعرض الناس مصنوعاتهم ويقوم الصناع منهم بصناعتها على مرأى من المنقرحين ومسمع من الامور الشيقة والمشاهد الممتعة التي لا تمل العين مشاهدتها والتي يقترن فيها عرض المظريف والحسن باحداث المستملح من الاشارات وتمثيل المضحك والمستغرب من العادات

على ان أهل الاستانة كانوا يكرهون هذا السلطان وقد بلغ رجال حكومته من نفاذ السكلمة حداً جروا به على الدولة المقت والكرهه والانتقاد المر . ففي عهده أهين القنصل الفرنسي أعظم اهانة فسب ووكز وضرب بالتعالم وفي عهده طرد مندوب روسيا من حضرة أولياء الامور أفضع طرد فرانس بالارجل حتى ازمج خارج القاعة وفي عهده ضرب مترجم الدولة جملة مرآت بالسياط والعصي . وكان وزراء الترك لا يقومون مرحبين بسفراء الدول الاجنبية وكانوا يعاملونهم أسوأ معاملته . ولم تكرم الدولة العثمانية مثنوى الاجانب الا منذ القرن التاسع عشر . ولما كان الصدر الاعظم يصر على أن لا يقوم اجلالاً لسفير من سفراء الدول وكان في هذا من الاهانة ما فيه لمقام السفير ودولته امتدى المهتدون الى حل للمسألة فيه رضاه الطرفين وذلك بان يدخل الصدر الاعظم والسفير من باين متقابلين في وقت واحد فلا يتجشم أحدهما مشقة القيام اجلالاً لصاحبه

ولما هزم الترك في فينا لم يشاءوا أن يجلوا عن المجر قبل أن يضرخوا ملك بولونيا المفتر بقوته ضربة ساحقة . وذلك انه تبعهم وسار في أثرهم غافلاً عن شجاعتهم التي لا تقارقههم ولكنهم ألفوا عليه درساً قاسياً في باركاني لم ينسه طول حياته . على ان ما أصاب ملك بولونيا علم النمسيين الاحتراس والحذر فتأنوا في حرب الترك واتخذوا الابهة كل مرة حتى اجلوهم شيئاً فشيئاً عن املاكهم الشمالية . وكان النمسيون يسترجعون المدينة بعد المدينة والمكان في أثر المسكان وقت في عضد الترك الخذلان الذي أصابهم في موهكس ذلك المكان الذي شرف قدرهم فيه في الزمن السابق الهام السلطان سليمان وأخذت منهم مدينة بوده سنة ١٦٨٦ بعد أن كانت تابعة لهم تعترف بسيادتهم ١٤٥ عاماً . وتدفقت سيول الجنود النمسية على بلاد المجر حتى استولت على بلغراد سنة ١٦٨٨ ثم دخل لويس البادني بلاد البشناق وغزا البنادقة دلماشيا وأخضع حامي كنديا موروسيني بلاد المورة . وفي هذه الحرب نسف البنادقة معبد الباشيون العظيم بأيتنا وكان البوزنطيون قد جعلوه كنيسة ثم جعله الترك مستودعاً للبارود . ولم يتمكن الترك من رد غير الروسيين والبولونيين فاما غيرهم فقد امعنوا في بلادهم حتى صارت تركية أوروبا الى الضعف

ولما ضاق السلطان ذرعاً بتفاهم الاحوال ولى وجهه شطر أسرة كبرلي عساه يجد من ابناها من ينشط الى خدمة الدولة كاسلافه العظام فعين كبرلي زاده مصطفى



أخى احمد كبرلي الاشهر صدرأ أعظم سنة ١٦٨٩ فشمع عن مساعد الجدد وجعل مفتوح أعماله أفشاء العدل ونشر الامن بين النصارى من رعايا جلالة السلطان. وهكذا تأجل الى حين هياج الصقالبة والاروام في تركية أوروبا. وكان موصوفاً بالعقل وسعة العلم والاطلاع وشديد الاخلاص فكان اذا لم يستطع الافصاح عما بقلبه ألزم الصمت فلم يلبجأ الى النفاق. وكان مثل اخيه يحسن الحكم والسياسة والادارة ولا يحسن الحرب والقيادة على انه قاد العثمانيين ببسالة ضد أعدائهم النموسيين فرد الاوربيين واستعاد بلغراد وأزاح الحدود العثمانية الى نهر الساف. على انه قتل في موقعة سلاانكن سنة ١٦٩١ وتفرق جيشه شذر مذر. وجلس بعد ذلك في منصب الصدارة العظمى رجلان من رجال أسرته ولكنهما كانا دونه ودون محمد واحمد كبرلي مقدره ومهارة. على انهم جميعاً اخلصوا الخدمة لدولتهم وملتهم وسلطانهم ولاشك ان التحسين سنة التي قضوها في ظلال منصبهم الجليل كانت بمثابة مرساة ثقيلة منعت سفينة الدولة من ان يجرفها تيار الحوادث. وفي سنة ١٦٩٥ ذكر السلطان الجديد مصطفى الثاني أعمال أسلافه العظام فهم بالسير في اثرهم والنسج على منوالهم ونفقت فيه آثارهم وأعمالهم روحاً جديدة من النشاط لم يعدها العثمانيون في سلاطينهم من زمان بعيد. لذلك أخذ على عاتقه مهمة قيادة الجنود ومحاربة النموسيين. فلما رأته رعيته منه ذلك فرحت به واستبشرت ورحبت بتجديد معالم المجد القديم وتكاثر الجمع التي سارت خلفه في ظلال اللواء العثماني الكريم. على ان الحماس وحده لم يكن كافياً اذ ذلك لاحراز النصر لان البرانس أوجين كان يقود النموسيين وكان الحذق في القيادة غائباً عن ذهن السلطان ومن حوله من الوجوه والاعيان. فكانت موقعة زنتا سنة ١٦٩٧ من المواقع الفاصلة قتل فيها عشرون ألفاً من العثمانيين وأغرق عشرة آلاف وهم بولون الادبار. وقد بددت بهذه النسبة أحلام السلطان ولم يعد يفكر في استعادة مجد آل عثمان

وقد توسطت انكلاتره في شخص سفيرها في الاستانة اللورد باجت ورضي الباب العالي بتوسطها وكانت النتيجة صلح كارلوقنس وهو صلح عظيم الاهمية في التاريخ التركي. ففي مدينة كارلوقنس اجتمع مندوبو تركيا وروسيا لاول مرة في مجلس سياسي اوربي وفيه قبلت الدولة العثمانية مبدأ تداخل الدول المحايدة في شؤونها ومخاصماتها مع أعدائها. وبمعاهدة كارلوقنس سنة ١٦٩٩ احتفظت النمسا بترانسيلوانيا

والبحر الى الشمال من ماروش والغرب من تيس مع غالب سلافونيا واستعادت بولونيا بادوليا وكامنيك واحتفظت البندقية بدلماشيا والمورة وعقدت روسيا هدنة صارت بعد ذلك صلحاً . وبعد ١٧ عاماً نشبت حروب جديدة فاستولى البرنس أوجين على بلغراد وبواسطة معاهدة صلح بساروفتس ( سنة ١٧١٨ ) الذي توسطت فيه انكلتره ايضاً اعترف بحق النمسا في بقية بلاد المجر وصارت حدود الدولة العثمانية من الجهة الشمالية منطبقه على الحدود التي رسمت لها الى ان كانت معاهدة برلين

ومن التاريخ المذكور صارت السلطنة العثمانية من الدول التي لا يحسب لها في الحرب حساب وصارت جيوشها لا تخيف كبيرات الدول الاوربية ولا تقيم لها وزناً وذهبت هيبتها من القلوب وانصرفت همه قوادها وساستها لا الى تهديد حيرانها بل الى منع تدفق سيول النسيوين والروسيين الجارفة . بل صارت تركيا مهمة من حيث انها من اكبر العوامل في سير السياسات الدولية وأخذت بعض الدول تدافع عنها في ميدان الحرب ومجالس المفاوضات السياسية وأصبح اهتمام ساسة الترك بإيجاد محالفين تنفق مصالحهم مع مصالح الدولة أكبر من اهتمامهم بمقاتلة اعدائهم واتخاذ الالهة لمقابلتهم في ساحات الوغى . وفي قص حوادث المائة والخمسين سنة الباقية من تاريخ تركيا يدور الحديث على محور تعديت روسيا ووقوف انكلتره بالسيف والقلم في وجه مطامعها كما يدور حول التغييرات الداخلية التي أصابت السلطنة العثمانية مثل انفصال القطر المصري عنها ومجهودات السير ستراتفورد كاننج في اصلاح ادارتها ونشأة ونمو واستقلال ايلاتها النصرانية وغير ذلك مما نذكره بالاجمال حتى تكون بقية الصحف التالية ختام المقال

## الفصل الثالث

نهضة روسيا وحرورها مع الدولة ١٦٩٦ - ١٨١٢

### ظهور المسئلة الشرقية ونظورها

أصل الروسيين - نوجرود - روريق - كيف - تنصر الملكة أولغا -  
فلاديمير الاعظم - موسكو - غارات التتر - باطو في ايجنتر - تتر الرهط الذهبي -  
اسكندر نوسكي - ايفان الاعظم - العلاقات السياسية بين الدولتين الروسية والعثمانية - أول  
عهد البوسفور بهجوم الروسيين - ايفان الفظيع - بعثة استرلخان - بطرس الاعظم - حماية  
السلطان لشارل الثاني عشر ملك السويد - الاحاطة ببطرس على نهر البروث - صلح بانفراد -  
معاهدة فينارجه - كاترينة العظمى - زيارتها للقريم - حصار أوخاكوف - سواروف -  
معاهدة ياش - تالست - السير روبرت ادير - ستراقتورد كاننج - معاهدة بوخارست -  
تأثيرها في ارتداد نابليون عن موسكو

بينما الدولة العثمانية تشب وتترعرع وتملأ العالم فتوحات وتغزو وتمد رواق  
تسلطها على الاقطار والآفاق في السنين المتعاقبة والاحقاب المتواليه اذ بالشعوب  
القاطنة في سكثيا وسرماتية - حسب تسمية قدماء اليونان - تأخذ العدة والاهبة  
للم شعنها وتوحيد قوتها لتناوى العثمانيين وتمنع تقدمهم . وكانت السهول والبراري  
المعشوشبة الواقعة على سواحل البحار المتاخمة لاملاك الاتراك من الشمال تحت حكم  
أمراء عظام مروا بجالسهم بأدوار التطور والارتقاء قبل أن يتصل أرطغرل بسلطان  
قونية بقرون عديدة . وما زالت هذه الشعوب تشب وتقوى حتى حصل لها من القوة  
وشدة البأس ما كان فيه الخطر الشديد لعز أبناء عثمان

وتعشى الظلمات التاريخ القديم للاقاليم المشار اليها كما هي العادة ويصف مؤرخو  
بزنطية سكانها بالفذارة الشديدة والقسوة المتناهية وارتكاب ضروب الوحشية في  
حروبهم ويقولون أنهم كانوا يتخذون جماجم قتلى أعدائهم اقداحاً لتناول الشراب . فاما  
غير مؤرخي بزنطية فيصفونهم بالدعة ويزعمون أنهم كانوا يعيشون مرتاحي البال في  
هناك حال وصفاء زمان ويقولون فيهم ما قاله شعراء اليونان الاقدمين وهو أن أهل  
الشمال في رفاة ورخاء تمتد بهم الآجال الهذيمية الى أكثر من الف عام . ويقول هذا  
الفريق من المؤرخين أيضاً أن هؤلاء الاقوام كانوا حسني الشكل يحملون آلات

الطرب لا آلات الحرب والكفاح ولا يعلمون أن من الحديد تتخذ السيوف لقتل النفوس وازهاق الارواح . على أن السياح فلما يعلمون حقيقة الحال في الاراضي الغربية ولذلك فلا بد لنا من الاعتقاد بأن الزوار الاقدمين الذين وطأت أقدامهم البلاد التي عرفت فيما بعد بالبلاد الروسية اما توهموا أن البلاد كما وصفها خيال الشعراء وأرباب الوهم والمبالغه أو أنهم التقوا بقوم من أهل البأس والشدة الذين يحملون الباط الثقيلة دفاعاً عن النساء والولدان . فلم يكن سكان روسيا بالوحشية والقذارة التي ذكرها مؤرخو بيزنطية ولم يكونوا بالرفاهة والهناء الذي صورته أقلام فريق غيرهم من المؤرخين والشعراء

وكانت في البراري المعشوشبة وممرات جبال تلك الجهات الشمالية تروح المتاجر ونجيه من زمان بعيد وكان نهر الاثل - فولجا - أهم واسطة من وسائل الانتقال بين الشرق البعيد ومناطق بحر بلطيق ويتصل الاثل بمخارج قناته ببحيرات ونهيرات فتساق المتاجر من بحر الخزر الى بحر بلطيق على أهون سبيل ولذلك قامت في أثناء هذا الطريق مدينة نوجنود فكانت محلاً لالتقاء العروض والمتاجر وصارت عاصمة للدولة الروسية التي تمخض عنها الزمان . ومن السهل تقدير منفعة نهر كنهر الاثل لبلاد كابلاد الروسية لان مهمته ليست قاصرة على ري اقطار شاسعة وجهات مترامية الاطراف بل هو في ذاته من أصلح الانهار للملاحة فانه بطيء السير سهل الانحدار هادى التصريف . وما الفرق بين ارتفاع جهات منابعه وجهات مصباته ( وطوله ٢٥٠٠ ميل ) غير ٦٠٠ قدم . على أن عظم طوله وهدوه تدفقه ايضا السبين الوحيدين لحسن ارتفاع السفن الشراعية قديماً والسفن البخارية حديثاً به في التجارة وذلك لان نظرة واحدة الى الخريطة تكفي لان تربك أن بين مجاربه العليا وبين نهري فولكوف والدنيبر شقة ضيقة من الارض اليابسة بحيث تصير التجارة سهلة الانتقال من بحر الخزر الى البحرين الاسود والايض المتوسط

ومنذ أكثر من الف سنة كان سكان هذه المنطقة العظمى موضوع تهديد خطر قبائل الخزر الذين كانوا قد أتوا من بلاد القوقاز للاستيلاء على أملاك المسلمين وكانت قبائل النورمن في غضون ذلك قد غزت سكان المنطقة المحيطة ببحيرة المن وفرضت عليهم الجزية . وكانت هذه القبائل تسمى قبائل الروس وقائدها يدعى روريق لحق به اخوته سنة ٨٦٢ فكان هو وقومه واخوته سبباً في نشر الامن والسكينة والنظام

بين ربوع الاقوام الذين احتلت بلادهم  
 وكانت نوجرود عاصمة لروسيا بعد وصول روريق مدة خمسين عاماً وانفتح  
 بهبوط ذلك الزعيم عهد بطولة وفروسية عظيم  
 ثم اتخذ ايغور بن روريق مدينة كيف عاصمة له وارتقى فيها عرشاً وظلت قصبة  
 للبلاد وحاضرة عظمى مدة ثلاثة قرون . ثم دخلتها الديانة المسيحية في القرن العاشر  
 وقيل بل دعا اليها القديس اندراوس قبل ذلك بدهر طويل . وتسلمت أولغا أرملة  
 ايغور زمام الاحكام بعد وفاة زوجها حتى بلغ ولدها سن الرشد وفي عهدها امتد رواق  
 النصرانية في طول البلاد وعرضها . وفي سنة ٩٥٣ لما انتشر الهدوء والسكينة وامنت  
 أولغا على البلاد من الفتن الداخلية والغارات الاجنبية سافرت عن طريق الدنيبر  
 والبحر الاسود الى القسطنطينية حيث جرت لها حفلات التعميد الشائنة وسماها  
 القساوسة هيلانه وكان ذلك برعاية واشراف الامبراطور (قسطنطين بورفيروجنتاس)  
 أما فلاديمير الاعظم حفيدها فانه تممّد بعد ذلك بثلاثة وثلاثين سنة في مدينة  
 خرسون القريبة من سباسبول وقيل انه كان يحاصر خرسون . فلما استمعت عليه  
 نذر لله أن يعمّد في حوض كنيستها القديمة اذا هو أفلح في الاستيلاء عليها وقد  
 فتحت وبراً بوعده ولا يزال الى اليوم المكان الذي عمّد فيه فلاديمير يزار . وقد أخذ  
 هذا الملك بتناصر المسيحية - الدين الجديد - فاكثرت من بناء الكنائس والمدارس  
 وذكر جبون « ان الناس كانوا يعمدون في مياه الانهر بالالوف وكلهم فرح باعتناق  
 دين رضي باعتناقه الامير فلاديمير وحاشيته من الاشراف » وكان يعتبر العاصي عن  
 التنصر خائناً لبلاده ومولاه

على أن أعقاب فلاديمير لم يشربوا كأس الحكم والسلطة صافياً وسرعان  
 ما صارت المملكة امارات متفرقة يفري البعض منها في أحشاء البعض الآخر وتسيل  
 دماء أمرائها على مذابح الرغبة في الانفراد بالسلطة والتفوق . هذا الى أن عدواً مناجزاً  
 من الاعمم المتبربرة لا يفتأ يقاتلهم جميعاً ويصلبهم حرباً لا تقطع نارها ولا يتخذ  
 أوارها . وفي القرن الثاني عشر كانت العاصمة الاسمية للبلاد مدينة فلاديمير على نهر  
 محصور بين الاوكا والولجا وكانت ( نوجرود ) و( كيف ) من أعمر البلاد وأعز القرى  
 وكانت قد تأسست مدينة ( موسقو ) سنة ١١٤٧

وظلت الامارات الروسية في شقاق وعراك مدة قرن من الزمان . وفيها هي

كذلك اذ هب عليها ريح مداهم من الجنوب الشرقي . وذلك ان داهية القرون وخوف الزمان جنكيزخان كان قد قذف بقسم من جيوشه لالقاء الرعب في قلوب القبائل التركية الخيمة على ضفاف بحر الخزر الغربية . واجتاز جيش الطاغية التتري بلاد جورجيا وتخطى جبال القوقاز حتى اشرف على بطاح روسيا المتاخمة لبحر قزوين . هنالك استقبله أمراء روسيا بجيش جمعوه لصدده ولكنه مزقه شذر مذر على ضفة نهر صغير يصب في بحر ازوف بقرب المدينة المعروفة الآن بماريوبول وأمعن الغزاة في بلاد أعدائهم بعد أن اجتازوا نهر الدون ونشروا الخراب والفرع في سائر الارحاء وملا أهل روسيا الاصلين الاعتقاد بأن التتر عاقليل يعوودون الى اجتياح بلادهم وما هي الا ١٢ سنة حتى دهمهم جيش آخر من التتر مريع . وذلك ان باطو حفيد جنكيزخان صب على الروسيين سوط عذاب وقذف عليهم بجيش ذبح رجالهم وأشياخهم ونساءهم وأطفالهم ذبح الاغنام ثم جعل قراهم ويوتهم ومساكنهم طعمة السيف والنار حتى صارت موسقو وفلاديمير اطلالا دارة يخرج منها دخان الحريق الذي أتى عليها فجعلها أترأ بعد عين . وجمع الروسيون الحيوش لصد الغزاة فما افلحوا وما عادوا بغير الوهن والتكسير ورات نوحجروا ما أصاب أختيها فوطنت النفس على خراب محقق وفناء اكيد . الا ان باطو لسبب لا يعلمه الا الله لوى عنان جواده وعاد نحو الجنوب الى سهول نهر الدون . وفي السنة التالية ألبس جنوب روسيا لباس اللذ والخوف ثم عاد أدراجه . وفي سنة ١٢٤٠ ظهر امام كيف التي انهكتها الحروب الاهلية ولكنها مع ذلك لا تزال مطمح أنظاره ومحل طمعه في الاسلاب والغنائم وما هو الا وقت قليل حتى دكها دكا وجعل قباها البراقة طعمة النيران وقصورها العظيمة الرقيقة العباد اكواماً من التراب ينعق عليها اليوم والغربان . اما سكانها فقد ذبحهم ذبح الشياهم ومن سلم منهم من السيف لم يسلم من السلاسل والاغلال وغادرها وليس فيها الا جدران قليلة قائمة بها أتر الحريق شاهد عدل على ما كان لها من عز وشأن في سالف الازمان . وأسرع باطو في السير الى الغرب وبعد أن أصاب اتصاراً باهراً في لينجنتر ( سنة ١٢٤١ ) من أعمال مورافيا عاد الى الجانب الشرقي من نهر الانل وأسس هناك مدينة سراي وفيها ضرب فسطاطه الذهبي

خدمت انفاً روسيا الفتاة لهذه النكبات المتوالية والغارات المتعاقبة وأصبحت عمالة تترية للتتر عليها حق الطاعة والرضوخ مدة تنيف على مائتي سنة . ومع أن

الارض الموات أصلحت وغرست والمدن المتخرّبة رمت وعاد شيء من الطمأنينة الى الصدور الا أن يد التتر الثقيلة كانت شديدة الوطأة على أهل روسيا وما فشتوا بين حين وآخر يتوقعون من التتر غزواً جديداً. وكثيراً ما كانت مخيلتهم تمثل لهم عودة أولئك الجيابرة بشر مثل الشز الذي رأوه في وجوههم ايام باغنوم بقيادة باطو قنطير نفوسهم شعاعاً ويكادون يصعقون حتى من توهم أنهم قادمون. على أن، نير التتر لم يكن ليبقى على أعناق الروس بالرضاء اليهم والتسليم. فالاسكندر نوسكي البطل الوطني العظيم والامبراطور الشرعي نفخ في صدور قومه روح الثقة والامل باتتصاره على أهل السويد على ضفاف النيواسنة ١٢٤٠ في الموضع القائمة عليه الان مدينة بطرسبرج. وبين عامي ١٣٧٨ و١٣٨٠ جمع ديمتريوس الرابع جيشاً عظيماً لقتال التتر واتصر عليهم مرتين مع أنه كان عاملاً لهم وأميراً من قبلهم ففي موقعة على نهر الدون قتل منهم على ما يقال مائة الف على أن العدو الذي لا يبرأ غلته ولا ينطفئ لهب غيظه وحفقه عاد بالشر على فلاديمير وموسقو سنة ١٣٨١ فخرقها وقتل من موسقو وحدها على ما يقال ٢٤٠٠ ولم يعبف التتر عن الروس الا بشمن باهظ

على ان أهمية موسقو زادت على توالي الزمان وفي القرن الثاني انتهز ايفان الثالث - العظيم - فرصة ضعف تتر روسيا الذي نجم عن حروب تيمور وحاول رفع نيرهم عن مواطنيه. وان حكمه لهو بداية عهد جديد في تاريخ روسيا المسيحية الوطنية وذلك انه جمع امارات موسقو ونوخرود وغيرها ولاحت بشائر توحيد دولة روسية عظيمة. ثم تزوج أميرة من اميرات القسطنطينية وأعلن حقه في عرش بيزنطية باتخاذ شعارها - النسر ذا الرأسين - مع شعاره الاصيل وهو صورة القديس جرجس والتنين ونظم ايفان الكبير الامور وأحكم الترتيبات وأجرى العدل وجعل الضرائب على أساس من العدالة مكين وكان التتر اذ ذلك قد انقسموا الى جملة خانات أو امارات قامارة القريم ممتدة بطول نهر الدون وامارة قازان على نهر الانل وامارة استراخان على المجاري السفلى له وغيرها من الامارات في الشرق. وفي سنة ١٥٩٢ تم الاستيلاء على مدينة سراي ودمرت تدميراً

وكان ايفان في اول الامر على صفاء ووداد مع الدولة العلية وكان بعض الترك قد ضايقوا تجاراً من المسقوف أنوا اليهم وعاملوهم فلما علم بذلك ايفان الثالث سنة ١٤٩٢ كتب الى بايزيد الثاني واقترح ايجاد الصلات التجارية المتينة بين الدولتين. وبمد

مضي ثلاث سنوات أرسل القيصر أول سفير روسي الى الاستانة

على ان العدوان بين الروس والقسطنطينية قبل استيلاء الاتراك عليها اقدم من هذا وذلك انه في سنة ٨٦٤ ظهر أسطول للروس في القرن الذهبي ولم يرده أهل القسطنطينية على اعقابه الا بصعوبة . وفي سنة ٩٠٦ وصلت الى القسطنطينية جيوش روسية برية وبحرية بقيادة اوج الوصي على ايفور بن روريق وألبست المدينة لباس العذاب والخوف فتهبت واستبيحت وقتل من أهلها خلق كثير . وفي سنة ٩٤١ ذهب ايفور نفسه على رأس اسطول واجتاح السواحل وخرّب البلاد وقتل كثيراً من سكانها ولم يرده عنها الا النار الاغريقية التي ذاق المسلمون في حروبهم مع اليونان منها الامرين . وفي سنة ٩٧٢ ارسل سوانوسلاف الاول بعثة حربية اخرى الى القسطنطينية فردها عنها الامبراطور يوحنا زمسكيس الذي دحر الروسيين في البلقان ولكنه قتل قبل ان يرى بعينه ارتداد الاعداء الى بلادهم مهزومين . فمن هنا يرى المطالع ان أطاع الروسيين في المدينة الجميلة الواقعة على البوسفور قديمة العهد جداً وانهم كانوا يجلون بالاستيلاء عليها قبل ان يستقر فيها الترك بقرون عديدة

زاد نفوذ موسقو وزادت عظمتها وقد أتاح الله لها من الروسيين الوطنيين أمراء حريصين ذوي باع في السياسة يحنون الرؤوس احتراماً وخضوعاً لتتر اذا آنسوا فيهم القوة ورأوا من قومهم ضعفاً حتى اذا سنحت الفرصة لم يتأخروا عن مناجزة عدو بلادهم الحرب وكان هؤلاء الامراء لا يألون جهداً في اجتذاب الكنيسة الارثوذكسية ورجال الدين فضلاً عن الاشراف والاعيان ذوي النفوذ في البلاد . وتم لهم أخضاع أهل ليتوانيا المعاندين وصار أعقاب روريق يعرفون باسم « أمراء عامة الروسيين الاكابر » . وفي ١٥٥٢ تم أخضاع التتر القازانيين وحملهم على دفع الجزية وبذلك اعترفت اقاليم مساحتها ٣٧ الف ميل مربع بوسع سلطة وسيادة ايفان الرابع حبروزني ( الفظيع ) الذي حكم نصف قرن كله عز وسؤدد للدولة الروسية

وكان تتر القريم أصعب مراساً وأشد بأساً وأصلب عوداً وكانوا يدفعون الجزية لسلطان العثمانيين ولكنه لم يمد اليهم يد المساعدة في حروبهم مع القيصر وكان الصدر الاعظم صفلي في هذا الوقت يهتم بتحقيق مشروع طالما فكر فيه المفكرون ولم يخرج من حيز الفكر الى دائرة الفعل والتمام . وهذا المشروع عبارة عن ايجاد طريق اتصال ماني بين الاستانة وحدود الفرس لتسهيل الاعمال التجارية والحربية وطريق



فقاذه ان تحفر ترعة بين نهري الدون والولجا وبها تستطيع السفن السفر من الاستانة في البحر الاسود الى بحر ازوف ثم تمخر مياه الدون وتصل بواسطة الترعة الى نهر الولجا ومنه الى بحر قزوين وحدود فارس . وكانت استراخان الواقعة على مصب الولجا والتي لا بد لانجاح المشروع من استيلاء الترك عليها في يد الروسيين اذ ذلك فارسل الصدر الاعظم جيشاً عظيماً للاستيلاء عليها ولكن الروسيين فرقوه شذراً مذبذباً رغماً من مساعدة التتر الذين أصابهم أيضاً ما أصاب الترك . وأرسل القيصر الى الاستانة بعثة تشكو من هذا العدوان . ثم نشأت بعد ذلك العلاقات الودية بين الدولتين ولم تكن روسيا اذ ذلك من القوة بحيث تستطيع التهديد والوعيد واغلاظ القول . وفي سنة ١٥٧٨ أي بعد أمضاء معاهدة الصلح بين الترك والروسيين أرسل تتر القريم جيوشاً على موسقو فاخذتها عنوة وجعلتها طعمة للذيران . وكان القيصر قبل هذه المصيبة بعام واحد أخذ يعذب رعيته لتوسمه الحيانة في بعض أفرادها فلما هاجم التتر عاصمة بلاده هرب هروباً مخزياً والنفس النجاة في محتباً بين أفراد شعبه الذي عذبه وأشفاه وفي أواخر حكم ايفان الفظيع كانت الحجة الظاهرة سائدة بين القيصر وجلالة سلطان العثمانيين فلما انقضى عهده ومات ضربت الفوضى أطناها في ارجاء روسيا وتذابح الامراء على العرش فلم تكن روسيا لتستطيع أن تمد نفوذها في الخارج . وبعد أن تأيد امر امرة رومانوف زادت مسافة الخلف بين الروسيين والأتراك العثمانيين واشتدت عداوتهما وتنافسهما الطبيعيان الدائمان ولاح شبح الحرب الخفيف بينهما وكان التتر شجعاً في حلق الروس كما كان القوزاق قذى في عين الدولة العلية وقامت حروب صغيرة بين الدولتين في النصف الاخير من القرن السابع عشر . ففي سنة ١٦٩٦ استولى بطرس الاكبر على أزوف وأوطأ الروسيين سواحل البحر الاسود . على أن صلح كارلوتز ثبط همة الأتراك فلم يبدوا المقاومة اللائقة بهم وتأيد السلام بين الدولتين مدة ثلاثين سنة بصلح أبرم بينها سنة ١٧٠٠ على أن القيصر في غضون ذلك كان لا يفتقر عن تحصين أزوف فقابل العثمانيون عمله باقامة حصون بني قلعة . وشغل بطرس الاكبر عن الكيد لتركيا والأتراك ما دهمه من قتال وعداوة شارل الثاني عشر ملك السويد فلما اندحر هذا الاخير وفر من وجه الروس التجأ الى حمى العثمانيين فاجاروه واكرموا مثواه وأبى السلطان احمد تسليمه لبطرس فشهق هذا الحرب على الدولة غير

مراع حرمة معاهدة صلح الثلاثين سنة . غير انه وجد نفسه وقد أحاط به العثمانيون من كل جانب بجوار نهر البروث ووقع مؤسس عظمة روسيا ورافع لواء مجدها في قبضة قائد جيوش العثمانيين الصدر الاعظم . على أن ذكاه كثيرنا وحسن حيلتها وما قدمته من الاموال الطائلة للقائد الخائن أخرج زوجها من المأزق الحرج الذي وجد فيه وسلمت روسيا كلها بسلامة بطرس وفك الحصار عنه . وكانت معاهدات الصلح بين الدولتين متعددة ومتوالية . فالتى أبرمت بينهما سنة ١٧١١ تلتها أخرى سنة ١٧٢٠ ثم تمالأ القيصر والسلطان على السكيد لفارس وأرغماها على عقد صلح رابع لها

مضت سنوات قلائل بعد هذا ثم ساد في أوروبا اعتقاد عام بان شمس الدولة العثمانية قد آذنت بالمرغيب وانها في اخريات ايامها وكان مرور الزمن لا يزيد هذا الاعتقاد الا رسوخاً . وليس أدل على ثبوت هذا الاعتقاد في أذهان الساسة الاوربيين من تصريح نقولا قيصر روسيا سنة ١٨٤٤ اذ قال للسير هاملتون سيمور في عرض كلامه عن انحلال السلطنة التركية : ها نحن أولاء نشهد احتضار الرجل العليل يعني تركيا . وهو تصريح جاء في أوان كان الرأي العام الاوربي يقول فيه بإمكان طرد العثمانيين من القارة بقضهم وقضيضهم واقتسام أملاكهم بين الدول المسيحية

على أن اذلال بطرس الاكبر على ضفاف البروث لم يبرح عن أذهان الروسيين . وكان قياصرة ورجال روسيا يتهبون غيظاً وحقداً على الاتراك كلما ذكروا هذا العار . فبطرس الثاني جمع الجموع واتخذ العدة لشن الغارة عليهم ولكن المنية ما امهلته (سنة ١٧٢٧) وأخرت الاحوال تمام انفاذ مشروعه الخطير نحو الدولة الى سنة ١٧٣٦ وفي (مارس) تحركت الجيوش الروسية بأمر الملكة حنة للانتقام من العثمانيين وختم الحرب التي حاولت الدولتان التخلص منها جملة مرات بصلح بلغراد سنة ١٧٣٩ واسكن الدولة الروسية لم تشف غليلها كل الشفاء ولم تقع غلتها كل النقع لان مواد الصلح لم تكن كافية لاذلال آل عثمان حسب رأيها

ومضت تسع وعشرون سنة ثم عاد العدوان بين الدولتين الى ما كان عليه . ففي سنة ١٧٦٨ سخط الرأي العام في الاستانة سخطاً شديداً على روسيا لاحتلالها بولونيا وسبي قيصرتها كاترينة الثانية في اجلاس خليلها بونياتوسكي ملكا على عرش هذه المملكة العسة التي انتهت دسائس روسيا فيها باقتسامها . وشبت الحرب بين الدولتين والسلطان على غير عدة وأظهر قواد الفريقين المتحاربين - الا القائد الروسي

روميانزوف - جهلاً وعدم أكثرات فلم يكن من مظاهر الحرب ما يسترعي الاهتمام ويسترعي الانظار غير ظهور الاسطول الروسي على سواحل اليونان بقيادة ضباط من الانكليز وحسن دفاع الترك عن ساسترة سنة ١٧٧٣ وختم صلح قينارجه المنعقد في الحادي والعشرين من يوليو فصول هذه الحرب . وبلا حظ أن الروسيين اختاروا الحادي والعشرين من يوليو لمحو أثر عار صلح البروث اذ كان في اليوم عينه . وكسبت روسيا بهذا الصلح مزايا عظيمة اذ اعترف فيه باستقلال خانات القرم وولايات الدانوب ومع أنها تنازلت عما فتحته استبقت حصونها على البحرين الاسود وأزوف . وكان صلح قينارجه فاتحة انحلال السلطنة وهو أمر كان يرجوه الصقالبة ويسمون له بما أوتوا من قوة . وسمت كاترينة احد أحفادها قسطنطين وكتبت على أحد أبواب موسكو الطريق الى القسطنطينية وكل هذا معناه في رأيها ان الاستيلاء على الاستانة أمر سهل المنال

وتظهر علامات تطور المسألة الشرقية - تلك المسألة الدولية الهامة - في ثانيا معاهدات ياش وبكرش واقربمان وادرنه . وكان التبر قد منحوا الاستقلال بمقتضى معاهدة قينارجه وتعهدت روسيا ان لا تتدخل في شؤونهم على ان الامبراطورة كانت عازمة على سلب أهل القرم استقلالهم قبل أن يجف مداد المعاهدة التي بها قررت على نفسها احترام ذلك . ففي سنة ١٧٨٣ أعلنت ضم القرم الى روسيا وهاجت الاستانة وماجت من جراء ذلك . وكانت انكلترا اذ ذاك لانحج أغضاب روسيا لسكراحتها فرنسا فكان السلطان من غير عضد واضطرته غير الايام أن يرضى مكرهاً بما فعلته روسيا

وفي سنة ١٧٨٧ زارت كاترينة أملاكها الجديدة برفقة الامبراطور النمساوي يوسف وكتبت كتابة فخمة على أحد ابواب خرسون مؤداها : هذا الباب يفضي الى مدينة بيزنطية . فلما سمع الاترك بذلك نارت ثائرتهم ولم يستطيعوا كتمان غيظهم وأعلنوا الحرب على روسيا وكانوا هذه الدفعة أيضاً على غير اهبة واستعداد . وفي ديسمبر سنة ١٧٨٨ حدث حصار أوخاكوف وكانت عظمة التحصين ويظن ان باستطاعة حاميتها رد الروسيين عن الافلاق والبغدان . غير ان الجنود الروسية التهبت غيظاً وكرهية للاتراك وشوقاً لقتالهم بعد ان أراها قوادها ما فعل الاعداء بسكان قرية مجاورة هنالك شددوا الحصار واستأوتوا في القتال حتى ارتقوا الاسوار وأذاقوا العثمانيين البوار

وألحقوا بهم الدمار والبسوم لباس الذل والعار . ثم أتتهم بعد دخول المدينة انطلقوا كالوحوش الضارية والسباع الجائعة والسيول المتدفقة فقتلوا ونهبوا وسرقوا ومثلوا ورووا النرى بدماء سكان المدينة المساكين الذين جرى عليهم مدة ثلاثة أيام كاملة ما تقشعر منه الابدان وما يفرع منه الانسان ويستغيث من هوله الثقلان ولا عجب فلم يبق من سكان المدينة البائع عددهم ٤٠٠٠٠ غير ٣٠٠ من النساء والاطفال

وفي السنة التالية أمر القائد الروسي سواروف الذي تنسب اليه فظائع اوخاكوف بالتقدم لحصار قلعة اسماعيل القائمة على دال الطونة كأنها جبهة الاسد أو عقاب الجو وكانت لا تبعد عن ساحل البحر الاسود باكثر من اربعين ميلاً . واستولى الروسيون عليها بمهاجمتها ليلاً ولسكنهم بعد ان دخلوها علموا ان مهمتهم لم تنته بعد وانهم لا بد يصلطون نار حرب لا تذكر بجانبها الحرب التي ذاقوها وهم خارج الاسوار . وذلك ان شوارع المدينة كانت كالبحر المتقد فكان كل منزل معقلاً وكل طريق ميدان قتال فظيع وجرت المذابح الهائلة طول اليوم وجرى تيار الدماء تحت أقدام المتذابحين وقد أنستهم الوحشية أنهم اخوان في الانسانية . وكان سكان المدينة المساكين يذبجون ذبح الاغنام وليس للروسيين أكباد تحبس وقلوب تشفق حتى قتل في الثلاثة الايام الالف وختم صلح ياش المؤرخ في يناير سنة ١٧٩٢ فصول هذه المأساة ومن الغريب ان الروسيين استهلوه « باسم الله » كما هي العادة وتعهدوا برعاية حقوق الصداقة والجوار ! ? وان يعودوا الى مصافاة العثمانيين بمد ان كدرتها خلافات تافهة !! ثم ختموا اكاذيبهم بأنهم يحترمون هذا المهد الى الابد

وكان الروسيون قد نجحوا في حمل الترك على الاعتراف لهم بحق الوقوف موقف المدافع عن نصارى الدولة العثمانية . كان ذلك في شروط معاهدة قينارجة ( ١٧٧٤ ) . فلما وضعت شروط معاهدة ياش ( ١٧٩١ ) حرصت كاترينة على وضع شرط يتعلق بتأييد الحق المذكور . وكانت لا تقبل عن بطرس في انتهاز كل فرصة تؤول الى اشهارها بالوقوف موقف المدافع عن مسيحيي السلطنة العثمانية لعلها ان من هذا يأتي الخلاف وانتحال الاعذار لشهر الحرب على الانراك العثمانيين . على ان كاترينة الثانية كانت دائماً لا تكاد توقع شروط الصلح حتى تتأهب للحرب والاعتداء ولا تؤكد الصداقة الا وهي توطن النفس على السكيد للدولة بالليل والنهار . فلم يكف بحجب مداد معاهدة ياش حتى كانت الاستعدادات قائمة على ساق وقدم للقيام باشسأم عمل ونهيء اكبر خطر

يهدد العثمانيين . نعم كانت روسيا تعد العدة لقطع دابر الأتراك واستئصال شأفتهم دفعة واحدة وفوجيء الناس بخبر موت أصل وبلاء وعلّة شقاء السلطنة التركية كاترينة الثانية وكان ذلك في نوفمبر سنة ١٧٩٦

على ان موت كاترينة لم يوقف الاعتداء على العثمانيين الاهنية فالروسيون انتهزوا أول فرصة سانحة وزحفوا على الافلاق والبغدان سنة ١٨٠٦ من غير اعلان حرب . فلما سمع الأتراك بذلك عرتهم دهشة وحيرة ونارت نائرة غضبهم وحنقهم من تعديت هذه العدوّة اللدودة وأخذوا يحشدون الجيوش لمقاومة الروس فلم يفلحوا وما عملوا عملاً يذكر . وكان في غضون ذلك قد تقابل قيصر الروس و نابليون بونابرت امبراطور الفرنسيين في تلمست ( ١٨٠٧ ) واتفق الاثنان على ايجاد الالفّة والوداد والصفاء بين بلاديهما وان يكونا خليلين متحابين وصديقين وفيين وان يبقى الوثام ويدوم الاخلاص بين دولتيهما الى ابد الآبدين ودهر الدهارين <sup>(١)</sup> ثم أجاز نابليون للاسكندر أن يقاسمه السلطنة العثمانية ولاجل أن يضللا بالرأي العام في أوروبا نشرا في الناس صورة اتفاقهما وفيه اعلنا مسارعة روسيا الى اخلاء الافلاق والبغدان وتظاهر القيصر باصدار الاوامر في هذا المعنى الى جيوشه . وكانت النمسا في غضون ذلك منهكة بحرب بونابرت وجرت موقعة وجرم وصلاح شونبرون وفيه قضى على آمالها فاصبحت الروسية لا تخشى معارضتها وخلا الجو لها لتكيد لتركيا وتعمل على سحقها

على ان عاملاً جديداً ظهر في أفق السياسة بالاستانة وتغير به مجرى الحوادث . وذلك ان انكلترا كانت في الزمن السابق مقيدة بمعاهدة روسية فكانت لذلك على غير وفاق مع السلطنة . فلما تعانق القيصر ونابليون في تلمست أصبحت انكلترة في حل من كسر قيود مخالفتها مع روسيا ولذلك سعى السير روبرت أدير في امضاء صالح الدردنيل سنة ١٨٠٩ وغادر السفارة الانكليزية في الاستانة وخلفه فيها سفير الانكليز لدى العثمانيين شاب لا يتجاوز ٢٣ سنة يدعى ستراتفورد كاتنج وكان على صغر سنه وقلة تجاربه وعدم موالاته وزارة خارجية انكلترة له بالارشادات والاوامر لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في احباط دسائس الفرنسيين وقد نجح في ذلك . وكان قصد نابليون الحقيقي اضعاف روسيا باسلاص قياد تعديها على تركيا حتى اذا استنزفت قواها

(١) ذلك لم يكن اكثر من خسة أعوام ا

في الحروب التركية ضمت فكانت لقمة سائغة له يزدردها . وكان يمني النساء بأخذ حصّة من أملاك تركيا وهو مع ذلك يهدد العثمانيين ويتوعدّهم بتوعد القادر الذي أربأ أوربا وملاها رعباً وسطوة إذا هم سمعوا نصح أنكلتره وأتمروا بأوامرها مع أنها الدولة التي قامت أدلة التاريخ على أنها غالباً خير من يقف موقف المدافع عن حقوق الشعوب المظلومة والدول المهضومة وأنها أحياناً نصير البؤساء وعون الضعفاء . وكان يتظاهر أيضاً بحب العثمانيين ويفرّجهم بحسن الدفاع عن سلطنتهم فكان مخادعاً محتالاً يلبس امام كل دولة لبوساً من الرياء جديداً وظهر في بادئ الامر كأن النجاح حليف مكره وقرين دهائه وان العثمانيين لا يمكن ان يتخلوا عن نصحه وارشاده

على أن عبقرية كاتنج ظهرت باجلى مظاهرها واتصرت حذقه السياسي على دهاء نابليون في ميدان السياسة بالاستانة . وكان الذكاء وحسن الحيلة وسداد الرأي هو كل ما يملك لان دولته لم يكن باستطاعتها ان تمد له يد المساعدة بالجيش البرية والسفان الحريسة . على ان انتصاره ذلك الانتصار الباهر في معارك السياسة بدوائر الحكومة التركية ونجاحه في تسير دفة الامور على ما يريد ويرغب انما كان سببه حسن بيانه وقوة حجته ودقة تصويره لاطماع نابليون في بلاد الدولة وبديع ذكره لاتفاقات الفرنسيين المتعلقة بكيفية اتيهاب أملاك المسلمين مع تجسيمه مخاوف الوزراء العثمانيين وتكراره اسداء النصح واتخاذ الاهبة لرد كيد نابليون في نحره . بكل هذه الوسائل استطاع السفير الانكليزي الشاب أن يوجه تيار السياسة التركية الى الجهة التي تتفع دولته وتخدم حكومته حتى حمل الباب العالي على امضاء صلح مع روسيا ولو بتضحية بعض الاقاليم . وهكذا أمضيت معاهدة بخارست (بكرش) في مايو سنة ١٨١٢ وتعدلت بموجبها الحدود بين روسيا وتركيا فصارت تنطبق على نهر البروت

هذا ولا شك أن نصحه للدولة بامضاء شروط هذا الصلح كان في مصلحتها لأنها أنهت حرباً كانت تعظم وبلاتها عليها وتتكاثر خسائرها منها كلما امتد الزمان . وكذلك كان هذا الصلح مفيداً للسياسة الدولية وسلامة وحرية أوربا لان أضعاف روسيا كان يؤدي الى تعاظم الخطر من نابليون فيبيت من غير منازع قوي وليس له من يوقف أطمائه في أوربا وغيرها عند حد اذا كانت روسيا خائرة القوى واهية البأس . هذا هو سر اهتمام السفير بحمل تركيا على امضاء شروط الصلح مع الروسيين حتى ينصرفوا لقتال الفرنسيين الزاحفين على بلادهم في الوقت المناسب . هذا ومن علم أن

تخطيم الجيش الفرنسي المرتد عن موسكو إنما كان باقراض الروسيين بقيادة شيكالوف ( وكانوا في حرب تركيا الآتية الذكر ) عليه علم أهمية سعي السفير الانكليزي في الاستانة فاليه وحده يرجع فضل زعزعة قوة نابليون الذي سهل على الحكومة الانكليزية بعد ذلك أن تستعد لضربه الضربة القاضية

## الفصل الرابع

## المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر

١٨٨٠ - ١٨١٠

سياسة أوروبا عامة وروسيا خاصة نحو الدولة - المراد بالمسألة الشرقية في القرن التاسع عشر - حال تركيا امس واليوم - السلطان محمود الثاني - خروج محمد علي باشا المصري وعلي باشا الاباني على السلطان - اعادة الانتكشارية - استقلال اليونان - مصر وتركيا ومعاودة سنة ١٨٤١ - السلطان عبد المجيد - حرب القرم - الاستيلاء على سيستبول - معاهدة باريس - القلاقل البينانية - السلطانان عبد العزيز ومراد الخامس - السلطان عبد الحميد الثاني - حرب روسيا - حصار بانفا - معاهدة برلين - انكماش السلطنة

كانت تركيا في العصور السالفة تحارب لزيادة الفتوحات أو لصد هجمات الهاجين عليها ودفعت الطامعين فيها . أما في القرن التاسع عشر فشرعت أمم اخرى تحارب باسم تركيا لا دفاعاً عن مصالح تركيا بل خيرة على مصالحهن وقد أصبحت مدينة البوسفور موضوعاً لنضال الدول الأوروبية . فاحداهن وهي روسيا متحفزة للاستيلاء عليها وبقيّة الدول مع خوف كل منها من اعلان رغبتها في ضمها اليها قد عقدن الحناصر على ان لا يقترب منها طامع فيها . وبحلول القرن التاسع عشر زالت كل الخاوف من قوة تركيا العسكرية وكل ما بقي في صدور الدول من القلق لم يكن سببه قوة تركيا بل ضعفها وانحلالها فيختل التوازن اختلالاً عظيماً . وضعف الدولة وقوتها ا كبر عامل في المسألة الشرقية . ومن المؤكد ان الترك لم يغلبوا بحق وشرف في اية حرب من حروبهم في القرن التاسع عشر . ففي حروبهم مع روسيا ( ١٨٠٩ - ١٨١٢ ) لم ينكسروا الا انكساراً ضعيفاً . وفي حروب اليونان ( ١٨٢٢ - ١٨٢٨ ) كانت افكارهم مشتتة وأخذتهم ثورة اليونان المسلحة على غرة ومع ذلك لم يسلموا لليونان بمطالبتهم الا بضغط الدول الثلاث العظمى . وفي حرب روسيا ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ) نالت عدوتها النصر لا بجهد السيف بل بسلاح القدر والحيانة ولم يسلم السلطان محمود لها بمطالب ويعترف لها باتصار الابناء على الاضاليل والتلافيق التي وصلت اليه . وفي حرب القرم طرد الترك الروس من سلسرتة واضطروهم الى تخطي الطونة منهزمين قبل وصول الحلفاء واشتراكهم وبعد ذلك لم يفلح الروسيون في معركة يتعد بها . وفي حروب روسيا



والدولة التي ختمت فصولها بمعاهدة برلين أكد ثقات المؤرخين ممن لا يخافون في الحق لومة لائم أن الروس نالوا من النصر بمال أكثر مما نالوا منه بحد السيف وأن الترك لولا خيانة ضباطهم وحبهم للرشوة لافهموا الروسيين كل مرة أنهم أمام خصم عنيد وبطل صديد

على أنه أصبح من البديهي في القرن التاسع عشر اعتبار تركيا دولة لا حول لها ولا قوة على الدفاع وغالب الحروب والمخبرات التي تتعلق بالبوسفور حصلت مع افتراض أن تركيا مع ضعفها لا بد من وجودها حيث هي وكان يعتقد غلاة المتعصين من الفرنجة أن الأمة التركية ليست قابلة للرفي رغم التطورات التي حصلت في نظرياتها الاجتماعية والفكرية والادارية في السبعين سنة الاخيرة . وليس أدل على هذا التطور من الفرق بين حال القسطنطينية اليوم وحالها لما كان السفير الروسي يلقي في غياهب سجون القلعة ذات السبعة الابراج - وقت ان كان الوزير التركي يأنف أن يقوم بحية وتعظيها لممثل دولة أجنبية مهما كان قدرها وأيام كان السلطان يرى الاجنبي شيئاً حقيراً . على أن هذا التغير تناول أقلية فاما السواد الاعظم من الناس فقد كان في القرن التاسع عشر على ما كان عليه من الجمود والجهل وكانت لا تزال الادارة والحكومة مرتشية لان تركيا لم تتمتع بفترة طويلة من الراحة والطمأنينة وعدم انشغال البال من جهة حدودها وأملاكها ولم يتفرغ بنوها بما لديهم من حذق وكياسة وهمة وعزم الا الى القاء بذور الشقاق بين دول أوروبا الطامعة فيها ليأمنوا شرها ولم يوفقوا لاستئثار خيراتها وكنوزها وتفتيح وترتيب سلطاتها التنفيذية . وعسى هذه الفترة ان لا تكون من أحلام المنام التي لا سبيل الى تحقيقها وليس من الصواب الاعتقاد بان سلامة تركيا ونجاتها معلقة باصلاحاتها الداخلية فقط دون غيرها . وقد سارت الدول العظمى على قاعدة ضرورة وجود حائل يحول بين روسيا والبوسفور وان تركيا لذلك ينبغي أن تكون حيث هي وأن الرجل المريض اي تركيا كما صورها عقل نقولا المختبل يلزم ان تنفخ فيه روح الحياة والقوة

ولقد كان القرن التاسع عشر يجمع عدة حوادث آلت الى قص أطراف تركيا وهددت السلطان بالجللاء عن أوروبا

لما رقي محمود الثاني عرش السلطنة سنة ١٨٠٨ كان طفلاً أو العوبة في يد جنود

الانكشارية الذين فتكوا بغير واحد ممن تقدمه من السلاطين وقد افتتح حكمه بحرب مع روسيا على ان مطامع قيصرها وعداوته لم تكن بذات خطر بالنسبة لما كان ينويه نابليون للدولة من التقسيم ويعمل له في الحقباء .  
 فمعاهدة بوخارست ( سنة ١٨١٢ ) وضعت حداً للاخطار الناجمة عن مطامع روسيا وساعدت على فشل مشروع نابليون . على أن محموداً ابني باعداء من قومه وسكان داره بعد ان تخلص من نيات مكر روسيا وفرنسا وذلك ان بشوات عظاماً استبدوا بالامر والسلطة في جهات نائية من الدولة وصاروا يحكمونها كملوك مستقلين هازئين بسيادة السلطان واستبد أيضاً جماعة من الاعيان المحليين ببعض بلاد تركيا



علي باشا تبه دلتي

وقراها وسخروا من عساكر السلطان وجنوده . واشهر الرجال الذين هددوا الدولة بالانقسام رجلان أحدهما محمد علي الذي جعل مصر مستقلة بزعامته في العقد الثاني من القرن التاسع عشر وقد أسس فيها سلطنة على أوطد اساس بحيث أمكنه ان يورثها لاولاده واعقابه من بعده ومنهم صاحب السلطة الشرعية على مصر الآن والثاني علي باشا تبه دلتي صاحب يانينا الذي استبد بالسلطة في بلاد البانيا وانشأ لنفسه برماح البربرية والتوحش عزاً ونخاراً ساذجاً وما زال صاحب الامر في تلك البلاد الوعرة الى ان ظفرت به جنود السلطان وقتلته سنة ١٨٢٢ ولاجل التغلب على هذه الحصوم العنيدة

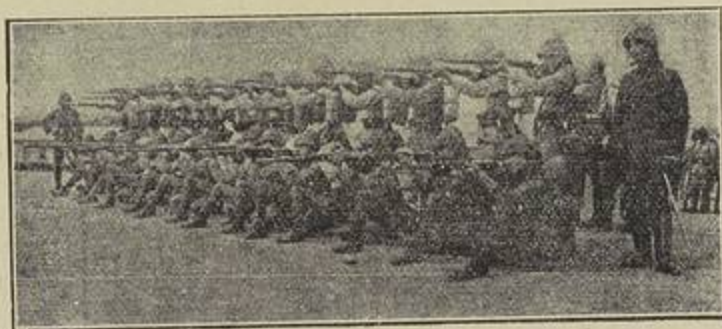
ومجاوزة كل هذه الاخطار الشديدة كان لا بد من وجود جيش قوي منتظم وتعزید من جانب الاهالي والرعية ولكن الرعية كانت تفضل اعيانها وذواتها المحليين على ضباط العثمانيين الفساة وتؤثر حكمهم على حكم الترك الفاسد واصبح الجيش من الانكشارية غير مخلص في اوقات الحرب مع انه مشاكس متمرد عاص في الثكنات ايام السلم فالسلطان محمود الذي كانت له ارادة حديدية وحذق سياسي عظيم وصبر لا يقهر شرع يعمل على مداواة هذه الادواء والعلل ولم تنضج مشروعاته الا بعد عشرين سنة . ففي سنة ١٨٢٦ بطش بالانكشارية ويان ذلك ان سكان يره وجهوا نظرهم جهة القرن الذهبي في صباح يوم من ايام شهر يونيو فرأوا عمودين من الدخان صاعدين



جند الانكشارية

الى السماء من جهة ماذن حي استامبول وكان الانكشارية قد تمردوا واحدثوا فتنة وشغباً ولكن السلطان كان على تمام الاهبة لهم وكان الدخان دليلاً على نسف ثكناتهم وان الجنود التي لم يمد الله في اجل نظامها الا لتلطيخ سمعتها الحسنة القديمة بصفات الجبن والحسة والدناءة وحب التردد قد ابادها السلطان محمود عن آخرها ومن سلم منهم من الحريق لم يسلم من البنادق المسددة والسيوف المشهرة وسفن النبي والتعذيب . واصبح السلطان بعد تقلص ظل الانكشارية حراً في انشاء جيش جديد منظم حسب القواعد الفنية الاوربية الحديثة المنبئة في جيوش ممالك الغرب جيش يستطيع

المحافظة على كرامة وشرف الاسم العثماني . وكان السلطان يطالع كتباً فرنسية في علم الحرب ويمرن عساكره بنفسه على الحركات ويلبس ملابس الجنود ويركب خيول الجنود على رحائل عسكرية وكان يشتغل ليل نهار باجتهد دائم متواصل . ولكن الاقدار مع ذلك كانت تعمل على معاكسته فانه بعد تشتت شمل جنود جيشه القديم وقبل ان يتم جمع وتظيم جيش جديد فوجيء بما لم يكن في الحسبان وداهمته الاخطار من كل مكان وأول الاخطار التي أفلقت بال السلطان محمود كانت من جهة اليونان ويكفي ان يكون تاريخ هلاس القديم المجيد الحافل بالافعال الشريفة والاقوال الحكيمة مرغبا للناس في التداخل في شؤون سكانها ومساعدتهم على طلب الاستقلال . على ان الواقع ان نيران الفتنة لم تشتعل طلباً للحرية وسعيها وانما كانت الدافع اليها مخرصات



مثال من الجنود التركي بالزي الجديد

ودسائس الدولة الروسية مع حب عامة اليونان للمشائبة حباً موروثاً . ومهما كان السبب الحقيقي لثورة اليونان ضد السلطان فان محي الانسانية والعلوم والآداب اليونانية القديمة من الفجورين في انكلمته وفرنسا توهموا أن الفتنة اليونانية التي كانت أترأ من آثار الثورة الفرنسية الكبرى السابقة لها بنحو قرن وربع من الزمان ماهي الاصدى للحرية اليونانية القديمة التي ترددت من قديم الزمان في ارجاء الترمويله ومراتون ولا عجب فان الاناشيد التي كان يرددها أفراد العصابات اليونانية في القرن التاسع عشر كانت بنفس لغة الشعارين الشهيرين القديمين ايسكليس وسوفوكليس ولذلك ساد احساس طبيعي حقيقي في ممالك غرب أوروبا بوجود مساعدة اليونان في استقلالهم . فمن الشعراء الذين باعوا أنفسهم ببيع السماح في سيل

الحرية اليونانية يرون الشاعر الانكليزي المشهور وكان مدفوعاً بعامل حب اليونانية والاعجاب بآثارها الباهرة وكذلك انضم الى صفوف اليونان من الجنود الذين يحبون المخاطرة ويميلون الى مساعدة الضعيف على القوي ميلاً فطرياً البطل الانكليزي تشارتش وكذلك انضم الى اليونان في حرب استقلالهم جماهير غفيرة من الابطال واهل المروءة والنخوة من سائر الطبقات والملل والنحل مدفوعين بعوامل مختلفة واهتم بالمسئلة اليونانية كل فكر رشيد وقلب جسور . وكانت فرنسا يسرها وبهمها ان يكون على عرش ائتنا أمير من سلالة ملوكها وكانت سياسة انكلترة في شخص وزير خارجيتها جورج كاتج تقضي بترك الامم المظلومة والاجناس المهضومة الحقوق تدافع عن حريتها واستقلالها وتجهز بالمطالبة بهما . اما مذهب سياسة اوربا نفسها في ذلك العهد تلك السياسة التي كان يتمسك بها تمسكاً شديداً البرنس مترنخ فكانت تقضي بجعل الدول الاوربية بصفة حارس غيور يسهر على ابقاء حال اوربا ونظامها على ما قرره معاهدة سنة ١٨١٥ ويمنع كل حركات الحرية والاستقلال ويقمع كل من يدعو اليها

اما المستر كاتج فكان يكره سياسة التحالف المقدس هذه كراهة شديدة ويعتبر الثورة اليونانية رغبة بسيطة من جهة شعب مسيحي يريد ان يخلع نير الترك وانها ليست تطاولاً جمهورياً على حق ملوكي مقدس . لذلك بذل وزير خارجية انكلترة كل جهود في ايجاد اتفاق بين الدول المحايدة ونجح في حمل الروسي ثم فرنسا على الاشتراك مع انجلترا في جبر السلطان على امضاء شروط معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ على ان السلطان لم يسلم بمطالب الدول ولم ير وجهاً - وجيوشه (على العموم) منصوره - لحرمان نفسه حرماناً اختيارياً من املاكه اليونانية . واشتبك بالصدفة الاسطول التركي واسطول الحلفاء في موقعة بحرية في مرفأ نفارينو ( اكتوبر سنة ١٨٢٧ ) فتحطم الاول وانقلبت المظاهرة السامية من قبل دول اوربا العظمى الى حصر بحري ثم نزلت قوة فرنسية الى البر في مورة وفي الحال تمكنت من اجلاء الجنود المصرية المساعدة واخيراً آل الامر الى حرب بين روسيا والدولة ( ١٨٢٨ - ١٨٢٩ )

وهذا كان اقصى امانى روسيا من زمان بعيد

ولقد كانت روسيا قد تحرشت بالدولة قبل ذلك فقدمت هذه لها ضحايا عظيمة باجابتها الى معاهدة اقرمان سنة ١٨٢٦ لان جيش السلطان اذ ذالك لم يكن على

تمام الابهة والاستعداد لحرب عظيمة مع دولة قوية وكان تحالف الدول الثلاث العظمى سنة ١٨٢٧ يمنع افراد احداهن بالعمل ولكن بموت المستر كاتنج وحلول اللورد ابردين محله في وزارة الخارجية انفتح المجال أمام روسيا للعمل بنفسها منفردة حرة. وكانت النتيجة زحف ديتش بجسارة على جبال البلقان وكسر جيوش السلطان محمود واضطراره الى امضاء معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ بحضور جيش روسي لم يكن يزيد عدده عن ١٥٠٠٠ ولقد نجح السيف المشهور المجرد في وجه تركيا في حمله على التنازل عما عجزت مجادلات السفراء ونكبة نفاينو المربعة عن الحصول عليه. وبذلك اعترف السلطان باستقلال اليونان ووسعت حدودها سنة ١٨٣٢ الى انقدر



السلطان محمود الثاني

الذي كانت عليه لغاية عهد عبد الحميد الثاني . ورفض الامير ليوبولد تاج اليونان وقد ادرك الناس من افعال اوتو البافاري ملك اليونانيين ان الحكومة الدستورية برآسة المسيحيين الاجانب لا تقل في فسادها واختلالها وعملمها على اغاظة المحكومين عن حكم الباشا التركي المستبد الظالم

ولقد كان انفصال اليونان ضربة شديدة على آمال السلطان محمود على انه لو كان ترك بعد ذلك مقدار ١٠ سنوات حراً مرتاحاً مطمئناً لكان بإمكانه تنفيذ سياسته الاصلاحية التي كان مغرماً بها . أما وقد كان سيء الطالع فقد سلطت الاقدار الدول على تحطيم أسطوله كما ابتلته بالروسيا التي حطت من قدره واضمفت جيشه وجملته

فربسة لتابعه القوي محمد علي والي مصر الذي أمعن بجنوده في قلب بلاد الشام بل وتهدد البوسفور فتدخلت روسيا في الوقت المناسب بين التابع والمتبوع ( وكوفئت في الحال على تداخلها بماهدة خونتقار اسكله سي ١٨٣٣ ) وبذلك نجحت القسطنطينية من محالب محمد علي

ازعجت هذه المعاهدة الدول الغربية ونهتها من غفلتها وسياتها لانها جعلت لروسيا حق مطلق اجتياز الدردنيل ومضى وقت ليس بالقصير حتى طلبت تلك الدول الاعتراف بحقها في معارضة روسيا واعتراض مطامعها . وكانت فرنسا في صف محمد علي



محمد علي باشا خديوي مصر

اما انجلترا فكانت تحت رياسة الاحرار في وزارة شرابي وملبورن وقد شغلها المسائل الداخلية عن التفرغ لشؤون السياسة الخارجية وقد اعترف بالمرستون بأنه أبطأ أكثر من اللازم قبل أن يقدم للسلطان التعضيد المطلوب . وفي آخر الامر سافر الاسطول الانكليزي قاصداً مياه الشرق الادنى واستولى على عكا واقتصرت املاك محمد علي بماهدة سنة ١٨٤١ على مصر وملحقها مع سيادة السلطان الذي ضمن سلامة واستقلال سلطنته دول اوربا العظمى . وتاريخ معاهدة سنة ١٨٤١ مهم وجوهري في سجل حوادث الدولة العثمانية الاخيرة وذلك لان الدولة العلية وضعت لأول مرة تحت وصاية وعناية الدول رسمياً

وفي غضون هذه الحوادث توفي السلطان محمود سنة ١٨٣٩ في السنة التي كادت  
املا كه تقع فيها غنيمه بارده في يد تابعه الخطير. ولو ان الله مد في اجله ١٤ سنة  
اخرى لكانت الدولة العثمانية انتفعت بالاصلاحات الداخلية اعظم انتفاع ولا بد ان  
ارادته القوية كانت تناولت كل فروع الادارة والحكم العثماني بالرفي والتحسين. أما  
وقد كان ابنه وورثه السلطان عبد الحميد على ما كان عليه من ضعف العزيمة والهواة  
- بصرف النظر عن صفاته الاخرى الحميدة والممدوحة - فما كان يرجى اجراء شيء  
من الاصلاح على يديه بالذات



السلطان عبد الحميد

وعكزت صفو الاصلاحات الداخلية التدريجية الهادئة التي أحدثها رجال عبد  
الحميد شوائب حادثتين من الحوادث الخارجية فالحادثة الاولى مرت ولم يقف بسببها  
سير الاصلاح الا مؤقتاً. وذلك أنه في سنة ١٨٤٩ حدث ان جماعة مختلفة الاجناس  
من بولونيا والمجر التجأوا الى بلاد السلطنة السنية ليمتعوا فيها بالسكون والهناء بعد  
أن نالهم الشيء الكثير من الظلم والاضطهاد والعذاب على أيدي النمسا والروسيا  
اللتين قمتا الثورات الناشئة فيها خصوصاً وفي أوروبا عموماً لذلك العهد باقضى ما  
يتصور من الشدة الدموية. وكان بين هؤلاء المحتمين بحمي الدولة زعماء مشهورون مثل  
كوشوت وبم ودينسكي فلم يسع كلا من امبراطور النمسا والروسيا الا طلب تسليم



أولئك الزعماء ومعنى تسليمهم التنازل لهم في الحال ولكن الترك رأوا أن تسليمهم بنا في مكارم الاخلاق الشرقية وواجبات الكرم والضيافة وعضدهم السير سترا فوردي كاتج في مقاومتهم الشريفة لطلب الامبراطورين فلم يسع النمسا والروسيا الا قطع العلائق بتركيا . وتفاقت الامور ولكن ظهور الاسطولين الانكليزي والفرنسي في مدخل الدردنيل اظهر للعالم ان تركيا لا تقاوم وحدها هذه الدفعة وبذلك زال الخطر وكتب السلامة للمحتمين بظل الدولة ولم يكبر الناس همة السفير الاعظم ومروءة السلطان العثماني في موقف من المواقف اكبارهم لهمتها ومروءتها في



الامبراطور نابليون الثالث

هذا الموقف الذي وقفه يدافعان عن مبدأ من اشرف المبادئ الاخلاقية . والحادثة الثانية التي عكرت صفو السير في سبيل الاصلاحات الداخلية كانت اشد من سابقتها هولاً واكبر تأثيراً وكان سببها من الحوادث اتنافة . ذلك انه كان في بيت المقدس رهبان من جنسيات مختلفة تابعون لكنائس او طوائف نصرانية مختلفة ما بين لاتينية وبونانية وأرمنية . وكان الرهبان من اللاتين والرهبان التابعون للكنيسة اليونانية لا ينقطعون عن النزاع والخلاف على الاماكن المقدسة مشهد حياة المسيح وكانت فرنسا تحمي الرهبان من اللاتين وروسيا تحمي اتباع الكنيسة اليونانية . واذا صح

ما قيل من أن الامبراطور نابليون الثالث وجد من الضروري الهاء الفرنسيين بعمل حربي أو أن مشاجرات الرهبان في ذلك العهد تصادف وصولها الى درجة خطيرة جداً فإنه من المؤكد على كل حال ان الفرنسيين تغالوا في مطالبهم سنة ١٨٥٢ الى درجة لا تحتمل وحات تركيا بين الفريقين المتذمرين الشاكين ولم تعرف كيف توفق بينهما أو من منهما تؤثره بانصافها ومرعاتها . وبمساعدة ستراتفورد كاتج الذي دخل اذ ذاك في مصاف اللوردات وصار « الفيكونت ستراتفورد دي رد كليف » أمكن حسم النزاع في ابريل من سنة ١٨٥٣ ولكن روسيا لم ترض بما ارضى غيرها



تقولا الاول قيصر روسيا

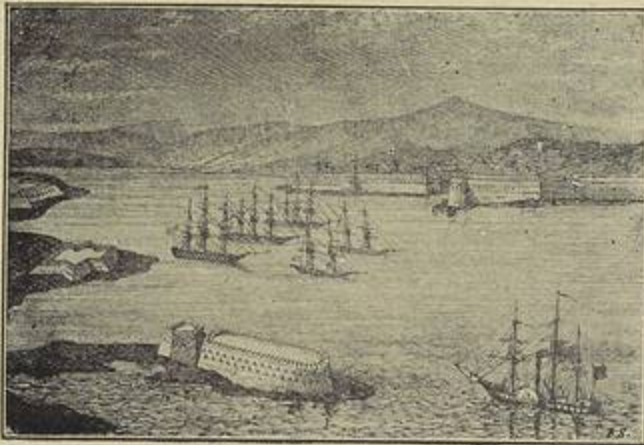
واصرت على طلب امتياز لو أجيبت اليه لحازت الزعامة والحماية على الاثني عشر مليوناً التابعين للكنيسة اليونانية والمذهب الارثوذكسي في بلاد الدولة. على ان هذا لم يكن ليسلم به طبعاً ومضت الشهور العديدة ورجال السياسة في أوروبا يتنافسون في تقديم اقتراحات الررضي والمسائلة ويقدمون مشروعات يغلقون بها باب المشاكل والحروب ولكن كان من الامور الواضحة من اول نشأة الخلاف ان قيصر روسيا المقتون لا يرضيه ما هو دون الحرب وامتساق الحسام لذلك أسرع الروس فزحفوا على ولاخيا في يونيو من سنة ١٨٥٣ من غير ان يكون لهم عذر مبرر . ولكن الترك مع ذلك رضخوا لارشادات ونصائح اللورد

سراً فوراً واكتفوا بالاحتجاج واستمرت المخابرات في فينا وغيرها ودخلت اساطيل انكليزاً وفرنساً الدردنيل في اكتوبر . والى هنا لم تكن الحرب قد أخذت بعد شكلها الجدي الرسمي ولكن بعد ان اندرت دول غرب اوربا روسيا صراحة وبعد ان افتتحت مراكبها مرفأ سينوب وأغرقت قسماً من الاسطول التركي واهلكت بحارته المستضعفين على مرأى من قائدي الاسطولين الانكليزي والفرنسي اللذين كانا راسيين في البوسفور زاد الحماس في صدور الانكليز وابتدأت الحرب المعروفة بحرب القرم في ٢٨ مارس سنة ١٨٥٤

وكان سبب شهر فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا الرغبة في اذغام روسيا على سحب جنودها من مدافيا وولاخيا . ولم تكف تصل قوى فرنسا وانجلترا المتحدة الى ميدان القتال بقيادة المرشال « سان ارنو » ولورد « رجلان » حتى اضطر الروسيون من جراء مضايقات النمسا وبسالة الترك في الدفاع عن سلسرة بقيادة بطر ونازमित الى الكوص والارتداد وقد عبروا الدانوب في يونيو فسار الترك في اعقابهم والى هنا وصلت الحرب الى الدرجة الفاصلة

على انه كان في الناس احساس عام ان روسيا لا تأدب وتلتزم جادة الاعتدال الا بحصار قلعة سباسبول الغضوبه ودكها دكاً . وبناء على ذلك شرع الحلفاء في سبتمبر يوجهون حملة على بلاد القرم لهذا الغرض وكان عملهم هذا خرقاً في الرأي واندفاعاً اعمى وراء العواطف فقد كانوا جاهلين بطبيعة الجهة التي ينزل فيها الجنود وجاهلين بطبيعة الاستحكامات وقوة الاعداء ومع ذلك رست سفنهم على مدخل تلك الجزيرة الجرداء فكان من نزل فيها من الجنود قليلاً ولم تتخذ لهم قاعدة حربية كما لم تدبر لهم وسائل التيون وقد وجدوا العدو بانتظارهم في جموع اكبر من جموعهم وفي مواقع حصينة على الاكبات الواقعة خلف نهر « الما » . وقد اخطأ الفرنسيون في القيام بما وكل اليهم من الحركات الحربية فلم يسع الانكليز الا شق طريق لهم صاعدين الائمة وقد ففرت مدافع العدو عليهم فاها فامطرهم وابلا من النار ومع ذلك أجلوا الروسيين عنها فولوا امامهم الادبار (٢٠ سبتمبر) . ولو كان الحلفاء بدرجة من القوة استطاعوا معها الاستمرار في مطاردة عدوهم لكان سقوط سباسبول في ايدي المشددين عليها في اليوم التالي أمراً محققاً ولكن قلة العدد وعدم توفر وسائل العناية بالجرحى وجبن البعض وتجاهد البعض الآخر كل هذه الامور أوجبت على اللورد

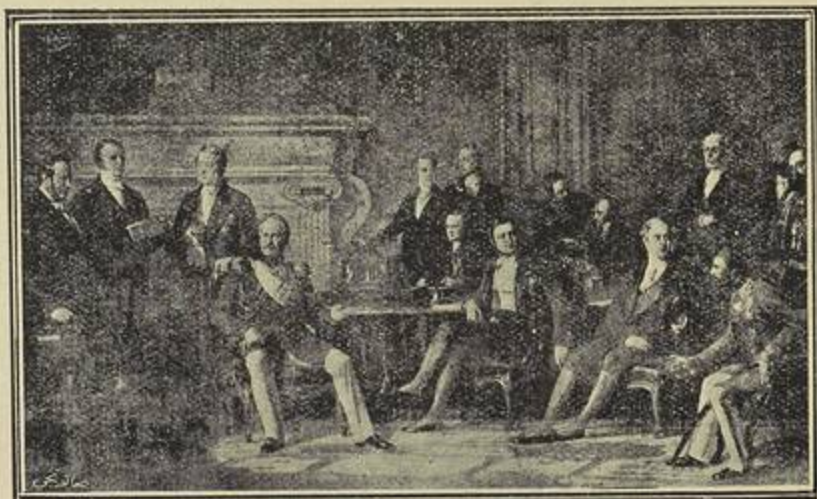
«رجلان» التمهل والانتظار. ولما أحس الحلفاء بضرورة اتخاذ مرفأ لهم للتموين والامداد زحفوا زحفاً جناحياً واستولوا على ثغر «بالا كلافا» ثم أخذوا يستعدون لمحصرة قلعة سباستبول من الجنوب. وقد قابلهم الروسيون بأعمال مختلفة منها أنهم هجموا على الجناح الايمن للقوة الانكليزية في الثاني عشر من اكتوبر فرددهم الانكليز رداً شديداً وأمعنوا فيهم قتلاً بجنودهم الزاكية المنقلة التي قادها الجنرال «سكارليت» وكذلك قابلتهم وهاجمتهم بنار حامية وبسالة نادرة أيضاً فرق الجنود الخفيفة الانجليزية فتغنى شعراء ووطنيو الانكليز بأفعالها الباهرة زمنياً طويلاً وان الذين رأوا بعيني رؤوسهم «وادي الموت» الخطير المهلك هم الذين وحدهم يمكنهم تمثل «فوهة جهنم»



حصون سباستبول

التي سار نحوها «ال٦٠٠ جندي النبيل» وهم على أحسن ما يكون الابطال من رباطة الجأش وحسن انتظام الصفوف. وقد خسر الانكليز في ذلك اليوم المشهود خسائر جسيمة تركتهم بعد ذلك عاجزين عن الاشتراك في حركات جديدة. على أنه في الخامس من نوفمبر أخذ ٨٠٠٠ من الانكليز على غرة في الضباب وكانوا مؤلفين من جنود الحرس وجنود الآلاي العشرين ومع ذلك أمكنهم الثبات في وجه الروسيين المفاجئين وكانوا لا يقلون عن ٤٠٠٠٠ وكان ذلك على أحد سفوح أكمة «انكرمان» ثم أتى الفرنسيون لنجدة الانكليز وأكروهوا العدو على الفرار من غير نظام وكانت أعمال حصار سباستبول في غضون ذلك تتقدم بخطوات بطيئة. أما الدفاع

عنها فقد تولى أمره النابغة « تودلين » وكان دفاعاً يمين عن حذق وذكاء وهمة لا تني وعزيمة لا تقتر فكان هجوم الحلفاء من غير نزوٍ معطلاً غير حر بتداخل الحكومة الامبراطورية في باريس في ترتيبات جيشها في القرم . ولذلك أخفقت سائر الجهود التي بذلت في الاستيلاء على الحصن في ربيع وصيف سنة ١٨٥٥ وقام العدو مقاومة مدهشة وتوالت المصائب على الحلفاء ونبس لهم وجه الزمان . فمات القائد الفرنسي وتولى بديله ثم استقال هذا البديل وحالفت الهموم والاشجان اللورد « رحلان » وكرهه الرأي العام واتقدته انتقاداً مرأ قاسياً أثر في صحته فمات تحت أنقال العبء الفكري والبدني في يونيو سنة ١٨٥٥ ولذلك لم تسقط حصون « ملاكوف » الا في



مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦

سبتمبر بعد ان شدد عليها الفرنسيون الهجوم ولم يتمكن الحلفاء من احتلال مدينة سياستبول الا بعد سقوط تلك الحصون  
وبدلاً من أن ينتهز الحلفاء فرصة اتصارهم على الروس ويزجحوا روسيا الى حدودها القديمة أي الى القوقاز ونهر دنيستر فيبعثون مملكة بولونيا من قبرها ويجهلون شجبي في حلق الروس من جهة الغرب عمدوا الى عقد صلح وأمضيت شروط معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ وقد عدلت بموجبها الحدود تعديلاً طفيفاً . ولكن أعم ما عني المتعاهدون بذكره من الشروط ضمان الدول صاحبة التوقيع سلامة واستقلال السلطنة

العثمانية ومحو الحماية الروسية من ولايات الدانوب والصرى والاعتراف بجماد البحر الاسود بالنسبة لمراكب سائر الدول التجارية مع بقائه مفتوحاً لها جميعاً واقفال البوسفور والدردينل في وجه سائر المراكب الحربية الاجنبية مادامت الدولة العثمانية ليست في حالة حرب . وقد تمهدت الدول العظمى أن لا تتدخل في شؤون تركيا الداخلية ووعد السلطان باصلاحات داخلية في الادارة مع تحسين معاملة رعاياه من النصرى . وكانت قد ظهرت نصوص تلك الاصلاحات الموعودة في الخط الهايونى في فبراير سنة ١٨٥٦ على ان أهم جزء من المعاهدة وهو المختص بجماد البحر



السلطان عبد العزيز

الاسود ألغاه القيصر سنة ١٨٧٠ لما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا وبقيت انكلترا من غير حليفها التي تناوته معها العداة و تصده عن مشروعاته . وفي سنة ١٨٧١ وافقت حكومة المستر غلادستون على نقض العهد والوعد على ذلك النمط القبيح وعاد البحر الاسود مرة أخرى بحيرة روسية وبذلك كان الاستيلاء على سباسبول عبئاً ومرت معاهدة باريس بالدولة العثمانية وهي سليمة لم تمس بسوء ومع أنها لم تفلح في رد شيء من أملاكها المفقودة الا أنها من جهة أخرى لم تسلبها أملاً كآ جديدة . على ان الوقت الذي أصبح فيه قص أطراف الدولة ضربة لازب لم يكن بعيداً

ولقد كان اللورد ستراتفورد يعلم بثاقب فكره من زمان بعيد ان لا شيء يضمن سلامة الدولة غير الاصلاحات الحقيقية الشاملة . فلما غادر الباب العالي سنة ١٨٥٨ لم يخلفه في مركزه من كان على درجة من قوة العزيمة وحصافة الرأي يستطيع معها ان يحدث وينفذ التغييرات اللازمة لبقائها واستقلت ولايات الدولة المتطرفة بالتدريج واحدة بعد الاخرى . وملدافيا وولاخيا اللتان اتحدتا سنة ١٨٥٨ استقلتا بعد ذلك استقلالاً فعلياً ( وكوتارومانيا ) وباستيلاء أمير من آل هوهنزولرن على عرش الولايتين المتحدتين استيلاء وراثياً سنة ١٨٨٦ صار لرومانيا محل بين الدول الاوربية . وقامت قلاقل في



السلطان عبد الحميد الثاني

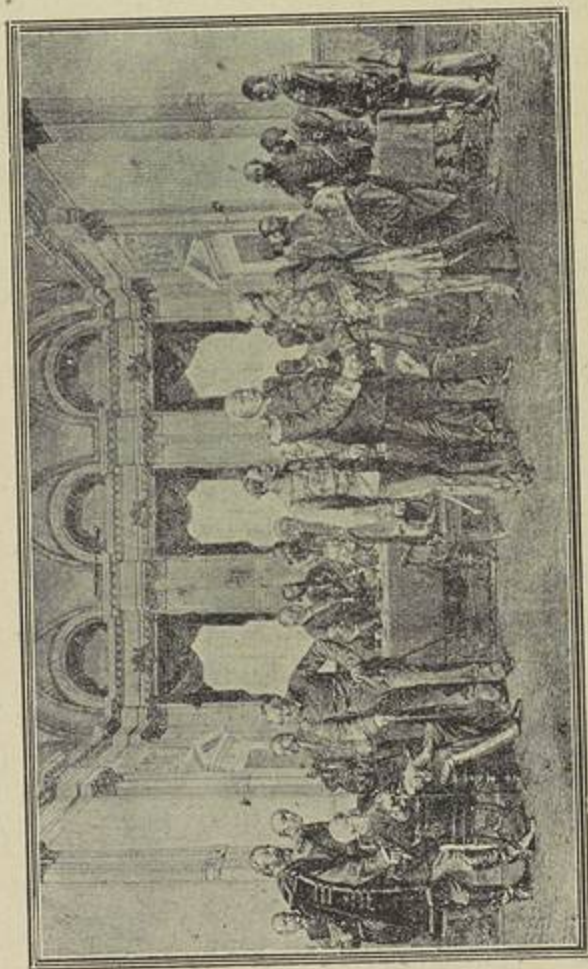
لبنان سنة ١٨٦٠ فأرسلت الحكومة الفرنسية إليه جيشاً لقمع الفتن وإعادة النظام وفي التوفيق بين الحقوق المتضاربة وجدت فرصة للورد دوفرين أظهر فيها تلك المواهب السياسية السامية التي عرف بها بين رجال السياسة . وتوفي السلطان عبد الحميد سنة ١٨٦٩ وبموته زالت آثار الأمل باصلاح وعلاج تركيا وكان خليفته أخوه السلطان عبدالعزير جاهلاً مستبداً جرب تبذيره وإسرافه الدولة إلى شفير الخراب سنة ١٨٧٥ وبذلك حرمها من ذلك العطف الذي فلما يناله المسرفون اذا أصبحوا صفر الأيدي ولم يشتهر بين الناس بشيء الا بجمبه للسفر والتجول ولم يعرف سلطان عثماني قبله ترك بلاده في غير حرب وهام على وجهه سائحاً مسافراً

في بلاد نائية ومع ذلك فان حلفاءه لم يقابلوه في سياحانه هذه بغير اهتمام  
وفي سنة ١٨٧٦ خلع ثم وجد ميتاً ولم يعرف سبب موته ولكن خاتمة حياته  
أثرت في قوى اخيه العقلية ولذلك عزل مراد الخامس ابن عبد المجيد بعد ثلاثة اشهر  
من تبوئه العرش خلفه اخوه عبد الحميد الثاني

وكان عبد الحميد رجلاً سيء الطالع اشهر بالذكاء والدهاء قضت الافقار أن  
يشهد على الرغم منه استيلاء الدول على املاكه. وكانت قبل أن يتبوأ العرش تشغل  
نيران ثورة بين مسيحيي الشمال فقد تمردت الهرسك سنة ١٨٧٤ وابتدأت على  
أثرها تلك المذابح والتعذيبات التي تشوب الاحكام التركية في العادة. ولما عضدت روسيا  
بلغاريا شرعت هذه في رفع نير السيادة التركية سنة ١٨٧٦ فقابلها رجال الادارة  
والشرطة التركية بمذابح وفظائع تمعاً للفتنة وتسكيناً للثورة وبالغ كتاب الجرائد في  
وصف المذابح والفظائع البلغارية التي حصلت في « بطق » وهولوا كثيراً. ولكن  
أفعال الترك في بلغاريا كانت اذ ذاك على درجة من الحشونة لم يسع انكسرتا معها  
الارفع الصوت الجمهوري بالاستنكار العادل والمقت الحق بصرف النظر عن  
الكتابات المبهجة التي كان ينشرها في الملاً أقدر الكتاب وأشهر الساسة كالمستر  
غلاستون وقد انضمت الصرب والجبل الاسود أيضاً الى صفوف البلغار الثائرين .  
فكان لا بد لتركيا من استجماع كل مجهود لمنازلة خصومها العديدين . وعبئاً حاولت  
الدول العظمى ان تتوسط بين الطرفين . وانعقد مؤتمر في يناير سنة ١٨٧٧ بمدينة  
الاستانة فرفضت اقتراحاته وأعلن على اثره قانون اساسي دستوري على شكل اقرب  
الى التمثيل الروائي منه الى الشكل الجدي المزمع التنفيذ . وانفردت روسيا من عقد  
الاجتماع الدولي الاوربي وانبرت معلنة الحرب على الدولة في ابريل سنة ١٨٧٧  
ولسنا نعرف حقيقة الاسباب التي دفعت القيصر الى شهر العدا على العثمانيين فبعضهم  
يقول ان القيصر اندفع بعامل حب الفتح والتوسع في الاملاك وآخرون يقولون بل  
احتراماً لرغبة السلافيين رعاياه اذ كانت كل امياهم وعواطفهم متجهة نحو شقيقهم  
الصغرى بلغاريا. كذلك ليس من الامور المعروفة ما اذا كانت الدول باثاقها معاً على  
حل المشكل وبلوغ المأرب من غير سفك الدماء تصيب النجاح أم لا . ومهما يكن من  
حقائق الامور فقد ابتدأت الحرب وأظهر الترك في اولها بسالة خصوصاً في آسيا  
حيث كسبوا موقعة « قزل ناي » وطرودوا الروس من « قارس »



أما في أوروبا فلم يحاولوا منع الروس من عبور الدانوب واحتل الروس « طرنوه » و « نيقوبوليس » وأرسلوا كوكبة سريعة من الفرسان لاجتياز جبال البلقان بقيادة الجنرال « جوركو » ولكن كان أشد مظاهر الحرب هولاً وبسالة



مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

دفاع عثمان باشا عن « بلقنا » فلقد حاول الروس والرومانيون عبثاً الاستيلاء على حصونها عنوة بعد جهاد خمسة أشهر أنكسروا في خلالها مرتين في العراء أنكساراً شديداً. وأخيراً في ديسمبر تضافرت الرشوة التي قدمت بسخاء لقواد الحيوش

المشلة الشرقية

الاتية بالمدد والذخيرة التركية مع الجوع على احدث النتيجة التي عجزت اضخم المدافع وأهم الاسلحة والعدد واوفر الجنود على الظفر بها وبرز عثمان باشا على رأس جيش من زهرة ابطال العثمانيين ونجبة رجالهم يريد ان يقتحم طريقاً للخروج وسط صفوف العدو المحاصر ولكنه اخفق واضطر الى التسليم وخسرت روسيا مع ذلك في حصار بلقنا ٥٠٠٠٠ من خيرة عساكرها

وبتسليم بلقنا لم تصبح نهاية الحرب بعيدة فقد اضطر مختار باشا الى الاعتصام بارمينية بعد ان اخذ الروس منه قارس وجاوز الجزائر جوركو سلسلة جبال البلقان مرة اخرى سنة ١٨٧٨ وكانت اذ ذلك مغطاة بالثلوج فلاقت الجنود الروسية في الصمود على احد سفحها والانحدار على السفح الآخر مشقات عظيمة واحتل الاعداء صوفيا وبعد قتال عنيف باسل في ممر شبكا انحدر رادستكي بجنوده وامضت شروط الصلح التمهيدية في ادرنه والروسيون شاهرون السيوف ( كما كان في سنة ١٨٢٩ )

ثم امضت معاهدة في سان استفانو في الثالث من مارس بحضور الجيش الروسي الذي كان معسكراً على ساحل بحر مرمره ولكن الشروط (١) كانت مجحفة بحق الدولة ومضرة بها الى درجة تداخل معها اللورد يكونسفيلد. فكانت نتيجة ذلك ان معاهدة برلين المؤرخة في يونيو سنة ١٨٧٨ ألغتها وحلت محلها . وبمعاهدة

(١) شروط معاهدة سان استفانو :

(١) تستولي روسيا على باطوم وقارس من أعمال أرمينية وتأخذ بساراييا من رومانيا وتعطيها بدلها دبروجه من أعمال بلغاريا

(٢) أن يترف الباب العالي باستقلال رومانيا والعرب والجبل الأسود ويزيد أراضي

كل منهما

(٣) أن يمنح البوسنة والمهرسك الاستقلال الاداري تحت اشراف روسيا والنمسا معاً

(٤) أن تكون بلغاريا امارة مستقلة استقلالاً داخلياً تماماً مع قيامها بدفع الجزية

للسلطان وان تكون حدودها من الطونه الى بحر الارخبيل فتدخل فيها أرض بلغاريا الحقيقية

والروملي الشرقية ومقدونيا ويكون عليها أمير منتخب وفيها مجلس نيابي من أهلها ويشرف

على سير الاعمال الادارية فيها قوميسر عالي روسي يؤيده ٥٠ ألفاً من الجنود مدة سنتين

(٥) هد وازالة جميع الحصون والماقل العثمانية المقامة على الطونة واصلاح حكم وادارة

البانيا وساليا وغيرها من اقاليم تركيا في أوروبا مع تمهد الدولة العثمانية باجراء الاصلاح في

ارمينية من غير ابطاء

برلين التي تسجل تقسيم تركيا بمواقفة اوربا رغم موافق وعهود سنة ١٨٥٦ اعترف باستقلال الصرب والجبل الاسود ورومانيا وخلق امارة دعوها امارة البلغار وجعلوها قسمين احدهما يتمتع بالحكم الذاتي والثاني جعل تحت حكم الدولة العثمانية وأعطيت تساليا ليونان واستعادت روسيا اقليم بسارايا الذي انتزع منها سنة ١٨٥٦ كما انها استبقت فتوحاتها في آسيا وهي قارس وباطوم واردهان . وفي مقابل مساعي انكثرته في هذا التعديل استولت على جزيرة قبرص مع بقاء سيادة السلطان ودفع الجزية السنوية

وهكذا انقصت تركيا الى المساحة المحدودة الضيقة النطاق التي كانت لها الى ما قبل الحرب البلقانية . ولقد كانت باتساعها القديم ايام كان الباب العالي لا يقتصر في حكمه على الاقليم الضيق المعروف الآن بتركية اوروبا بل يحكم ايضاً اليونان وبلغاريا والروملي الشرقية ورومانيا والصرب والبشناق والهرسك والقرم وبعض روسيا الجنوبية وآسيا الصغرى الى حدود الفرس ومصر والشام وطرابلس ونونس والجزائر وارخبيل البحر الايض المتوسط - بصرف النظر عن بلاد العرب ذات الجهات الصحراوية والمساحة العظيمة - تاوي من السكان ما يزيد عن ٥٠ مليوناً في اراض تزيد مساحتها عن مليونين من الاميال المربعة اي قدر اوربا ما عدا روسيا مرتين تقريباً . فانتزعت منها ايلاتها واحدة بعد أخرى وصار عزاها القديم في خبر كان . ومع ذلك فان من الانكليز من لا يزال يذهب بالنفاؤل الى حد القول بإمكان هضة المسلمين هضة عامة في المستقبل بزعامة خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين هضة ترجع بها الى الدين عزته والى الاسلام سطوته والى العيش نضارته وغضارته ويكون الترك كما كانوا شعباً ساذجاً على الفطرة السليمة والاخلاق الكريمة تركيز فيه مكارم الخلال ومحاسن الخصال على عزم اثبت من الجبال وامضى من النصال وبلتقي في صدره اياه النفس بشدة البأس وطهارة الابرار بشهامة الاحرار . ويقول اولئك المتفاهلون ان في طبيعة الشعب التركي استعداداً للرفي وقبولاً للنهوض وانه لا يعوزه الا مرشد يهديه ويقوده وعبقري يصلح من سائر شؤونه وان الامل قوي بان الهلال الذي نما نموه فصار بديراً وعاد محاقاً يمكن ان يصير بعد الحاق هلالاً وبعد الهلال بديراً بذر نوره على الخائفين وان للدهر لدورة وفي حوادث الزمان لعبرة

## الفصل الخامس

### الاتقلاب العثماني

استبداد عبد الحميد الثاني - الغاء الدستور - رجال الماين والجواسيس - القنك بالابرياء - المهاجرة - ثورة الارمن - المذابح الارمنية - عطف أوروبا على الارمن - دسائس الجمعيات الارمنية - اعتداء الارمن - الثورة في حوران وكريت - دسائس اليونان - حرب الترك واليونان - انتصار أدهم باشا - مشكلة كريت - ثورة الخين - انشاء سكة حديد الحجاز - المسئلة المقدونية - تمدد الجنسيات في مقدونيا - اعمال العصابات - مشروع مرزنج - نشأة الحرية العثمانية - تأثير آداب اللغات الغربية - رأي المستر جب - تركيا الفتاة - ازدياد وطأة استبداد الماين - جمعية الاتحاد والترقي - انتشار الافكار الثورية في الجيش - المطالبة بالدستور - الابتهاج باعاده - أوروبا بعد اعادة الدستور التركي - سلطة جمعية الاتحاد والترقي - خيانة عبد الحميد للدستور - خامه ونولية السلطان محمد الخامس .

كان اكثر الناس تطوعاً وراء الآمال والاماني واشدهم تفاؤلاً بالخير وحسن المستقبل للدولة العلية العثمانية واكبرهم رجاء بتقدمها ورقبها في ما لها اقلهم ثقة بإمكان حصولها على يسير الاصلاح وضئيل الفلاح على يد السلطان عبد الحميد الثاني الذي بدلاً من أن يعمل على ما فيه سد الثلمة ورأب الصدع وتقوم المعوج ودفع الاطماع الناشبة أظفارها في جسم الدولة من كل الجهات بما يتخذ من الوسائط لنشر العلوم والمعارف وتسهيل سبل التجارة والاخذ بيد الصناعة والعناية بالزراعة مع دفع الاقوياء عن الضعفاء بسلاح العدالة وبذل الاحسان والرفق لسائر صنوف الرعايا لا فرق بين غني وفقير عظيم وفقير مسلم ونصراني عربي وتركي وكردي وأرمني بحيث تكون الدولة كتلة واحدة تستطيع استجماع قوتها لاستعادة بعض ما فقدته بمعاهدة برلين وغيرها تقن في استتباط وسائط الاستبداد الغاشم وعمي عن كل شيء الا عن المحافظة على حياته ولو ماتت بسبب توهم الخطر عليها الالوف من رعاياه التمساء . فلقد بدأ سلسلة سيئاته بالغاء الدستور الذي رتب قواعده أبو الحرية العثمانية المأسوف عليه مدحت باشا ( ١٨٢٢ - ١٨٨٤ ) ثم جعل مقاليد الامور جميعها في يد جماعة من حاشية السراي ممن اشربوا حب السياسة الرجعية ومهروا في تطبيقها على نحو يعود بالبلاد القهقرى بسرعة عظيمة . وقد الباب العالي أو الوزارة الاسمية كل شيء من النفوذ والسلطة وأصبح الوزراء بل وسفراء الدول الاوربية أيضاً العوبة في يد

السلطان عبد الحميد. ولقد جمع صنائعه ومن اصطفاهم للقيام باعمال الادارة وشؤون الحكم القناطير المقنطرة من الاموال وغنموا المغام العظيمة من وراء خوف السلطان وهلمه من القتل غدراً وكان له من الجواسيس جيش جرار كان على ما يقال يصرف عليه ألف الف من الجنهات سنوياً وغصت الدولة من اقصاها الى اقصاها بالعيون والرصاد فما سلمت دار آمنة أو جماعة هادئة من تسرب العيون اليها واندساسهم فيها يعكرون عليها صفوها وبدسون عليها من الوشايات والسعايات ما يذل به عزيزها وتوطأ به حرمانها وتقفز به عرصاتنا وتخبو به نارها وينطفيء به سراجها فامتلات السجون



مدحت باشا

بالناس من سائر الارحاء وانحمت بطون الاسماك في قعر البوسفور بلحوم الابرياء . وكان السعيد من وفق الى الهجرة عن بلاد آباؤه وأجداده الى حيث يشم نسيم الحرية بعيداً عن مواطن التهلكة ومراتب العبودية . نخلت البلاد من ساكنيها وعفت الدساكر من قاطنيها وأصبحت العواصم بلاقع والثغور دوامع . وكان الناس متساوون كاستنان المشط امام تعسف عبد الحميد وظلمه فلم يرحم مسلماً ولم يبرث لحال نصراني لا التركي كان له من جنسيته شفيح ولم يكن للارمني في رحمة مطمع . فكان حكم

المابين الذي ملك على السلطان اذنه من شر ما ابتلى به العثمانيون من العذاب ومن أفضح ما ورد على البشر من صنوف التجبر والارهاب وامتدت يده الثقيلة القاسية الى سائر الاعمال فكانت أمور المالية والحيش والشرطة وسائر الخبازات الدولية تدبر داخل السراي وأصبح الوزراء ولا حول لهم ولا قوة في الصغير والكبير من الامور وكان للدول الاوربية حق التداخل بما خولتهما اتفاقات باريس وبرلين ولكنها كانت تخشى ان يفتح باب التنافس والتزاحم ويدخل منه الشر والحرب والمنازعات الدولية ولذلك آثرت الصمت واعتصمت بالاناة . على ان الامور سارت من ردىء الى أردأ منه وأقلق الدول خوفها على زوال الامتيازات التي سعوا في الحصول عليها من جملة من السلاطين العثمانيين لتأمين جانب رعاياهم المسيحيين لانهم رأوا ان اعوان عبد الحميد يسلبون العناصر غير الاسلامية حقوقاً كانت لهم وبطالوتهم بواجبات لم تكن عليهم . لذلك تظاهر الارمن سنة ١٨٩٠ فرأى ولاة الامور في تظاهرهم خروجاً على الدولة وانكاراً لسيادتها يعاقبون عليه بشدة عظيمة لا ترحم ولكن الارمن لم تسمع حنهم لاول وهلة مع انهم من الطوائف المسالمة المتساهلة الداجنة . على ان السلطان لذلك ركب في توقيع العقاب عليهم متن الشطط وقسى عليهم قسوة عظيمة وذبح منهم في سوسان وغيرها سنة ١٨٩٤ خلقاً كثيراً كثيرين تجرعوا غصص انصياعهم لتحريرض الجمعيات الارمنية المحتمية بحمي لندرة وباريس . ومما هو جدير بالذكر ان الارمن غير محبوبين من الاوربيين لان هؤلاء يرون فيهم عيوباً أخلاقية تربو على ما لهم من السجاي والمزايا الكريمة ولم يكن لهم من شفيح لدى المتنطعين والمتعصبين من الغربيين غير تدينهم بتوع من الديانة المسيحية بكفل لهم تحيز وعطف وشفقة أولئك الذين يحكون في الامور من غير روية فيعتقدون ان الدولة لم تسكل بهم الا لانهم مسيحيون . وتأثرت الدول والحكومات بالرأي العام الابله الجاهل فاثرت لمد يد المساعدة للارمن ونالفت لجان التحقيق سنة ١٨٩٥ ونشرت الكتب الزرقاء الرسمية . وبينما كانت اوربا تسمى في اصلاح الاحوال كانت الجمعيات الارمنية البعيدة عن الخطر ترمي الحطب على الفتن الارمنية فتزبدها اشتعلاً وتدفع بالارمن الى أتون النار وهي بعيدة عن الاخطار فقد قيل ان السفطاء وطلبة العلوم الدينية قتلوا من الارمن جمّاً غفيراً لما ظهر من هؤلاء من العناد والفحة بتحريرض تلك الجمعيات البعيدة التي نقت سمومها في سكان بتليس واذربجان وزينون وغيرها من بلاد آسيا

الصغرى فجنوا على انفسهم وقامت المذابح بين ظهرانيهم على ساق وقدم  
وليس أدل على حب الارمن للمشاغية ورغبتهم في الفتن وتحرشهم بمواطنيهم من  
رميهم القنابل على البنك العثماني في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ فان عملهم هذا أسخط  
عليهم سائر العقلاء من كافة الملل والنحل ولم يجسر أشد الناس إعجاباً بهم على التماس  
المعاذير لهم . ولذلك جازاهم سكان العاصمة بجنس عملهم فقتلوا منهم على ما يقال ٣٠٠٠  
وأرغموا سبعة أمثال هذا العدد على مبارحة البلاد . وصم الباب العالي اذنه عن سماع  
الاحتجاجات كما انه لم يهتم بتنفيذ ما طلبته الدول من صنوف الاصلاح  
ولم ينفرد الارمن بالقيام في وجه الدولة فقد نار الدوروز في حوران وقعت ثورتهم



ادم باشا

واشد الهياج في جزيرة كريت فسعت الدول العظمى لدى السلطان في تعيين حاكم  
مسيحي لها مع انشاء مجلس نيابي واطلاق العفو العام عن العصاة والمجرمين السياسيين .  
على أن اهل كريت ما برحوا بثورون وبتمردون وبمصون بحريض مملكة اليونان  
ودساتها ومساعدتها بالمال والرجال حتى فقد صبر الدولة وأعلنت الحرب التي اكتسح  
فيها ادم باشا تساليا في ابريل سنة ١٨٩٧ وأدب فيها المحرضين والدسايسين وضرب  
على أيديهم بحيث لم يحل ديسمبر من السنة نفسها حتى اضطرت أتينا الى طلب الصلح  
وهي صاغرة . ولا عجب فان اليونان لم يكونوا يوماً من الايام انداد الترك الاشاوس في

الحرب ونظراهم في ضروب البسالة وفنون القتال . على أن كريت بقيت مع ذلك شجى في حاق السياسة الدولية وذهبت أتعابها في حل المسئلة الكريتيية ادراج الرياح ولم يستتب شيء من النظام الا بفضل قواد أساطيل انكلترا وفرنسا وروسيا وابطاليا . واخيراً اضطرت الجنود التركية الى الجلاء عن الجزيرة في نوفمبر سنة ١٨٩٧ وغادرتها على رغم ألق السلطان وتعيين الامير اليوناني جورج حاكماً عليها وباستعفائه سنة ١٩٠٦ وتعيين المسيو زاييمس خلفاً له صارت كريت في الواقع جزءاً من المملكة اليونانية

وكأن الدولة قد قدر لها في ذلك الوقت أن لا تخلص من ورطة حتى تقع في شر منها وذلك أن اهل اليمن قاموا قومة رجل واحد يريدون التخلص من السيادة التركية وكان عليهم من حكام الترك رجل يقال له احمد فيضي باشا لم يعرف عنه انه سعى في اصلاح ذات الين بين الدولة ورعاياها أو عمل على نشر العدل والامن في ربوع البلاد . فارسلت اليهم الدولة الحيوش سنة ١٨٩٨ فمجزت عن تأديهم واستمرت نيران الفتن مشتعلة لغاية سنة ١٩٠٥ وفيها استولى فيضي باشا على صنعاء ولكنه اضطر الى التخلي عنها في السنة التالية لتعذر الامداد والمساعدة من القسطنطينية . ولم تكن هذه اثورات العربية الكثيرة لتستفيد منها الدولة الا تنهبها الى وجوب انشاء سكك حديدية تربط بها أجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف ولذلك أجاز السلطان انشاء خط من دمشق الى الحجاز فابتدأ العمل فيه من ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٠ ووصلوا به الى المدينة المنورة بهمة وسرعة غير عاديتين في صيف سنة ١٩٠٨ . هذا وان فوائد السكة الحجازية لا يمكن أن نخفي على أحد خصوصاً متى تم اتصالها بخطوط الاناضول وخط بغداد الواصل الى القسطنطينية . ولا شك ايضاً أن وجود خط الحجاز يسهل الحج على مرديه ويجمع المسلمين على اختلاف مساكنهم وتباعد مواطنهم كل عام في صعيد واحد فترداد الاخوة الاسلامية ارتباطاً والجامعة المحمدية وثوقاً وتم أمنية عبد الحميد الثاني ويستطاع بواسطتها دوام حشد الجنود قنشرت مع سكة حديد بغداد في نقل الانقار من ابعد جهات السلطنة حيث يعملون ويدربون ويكون بهم عز الدولة وبأسها كما ان بالسكك الحديدية العثمانية يتيسر تنظيم البلاد وتعمير الجهات واقامة اسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل كنوز الدولة وخيراتها المعدنية والزراعية والحيوانية



الى حيث يمكن الانتفاع بها فتمتلي خزائن الحكومة التركية بالاموال وتحسن الاحوال

على ان كل هذه الاماني ما كان يمكن تحقيق بعضها مع بقاء حكومة الباب العالي على ما كانت عليه من الفساد والارتباك مما جعلها سخرية العالم ولم تكن لغاية عهد قريب لتظهر رغبة صحيحة او دليلاً نافذاً على الميل الى اصلاح الامور ولم ترد الدول العظمى ان تتداخل تداخلاً فعلياً في اصلاح الدولة مع ان الادلة قامت جملة مرات على ان اظهار شيء من القوة كفيل بتقويم شيء من الاعوجاج  
فحكومة الاستانة لما اجترأت سنة ١٩٠١ على فض ايكاس البريد الاجنبية المحتومة لتوهيها احتوائها على خطابات مربية تظاهرت الدول بأساطيلها فاعتذرت الدولة وتعهدت ان لا تعود لمثل ما فعلت

ولما رفضت الاستانة التسليم ببعض المطالب الفرنسية ورست السفن الحربية الفرنسية على جزيرة مدلة سنة ١٩٠١ اجيبت سائر المطالب الفرنسية وزيادة بعد مضي ما لا يزيد عن خمسة أيام . وكذلك لما رأت الدول من الضروري تشكيل لجنة دولية لجمع الضرائب وضبط الاموال في مقدونية سيرت أسطولاً مؤلفاً من سفن نمساوية وبريطانية وفرنسية وايطالية وروسية فاحتل مدلة في نوفمبر سنة ١٩٠٥ وأنزل بها جنوداً مختلطة فلم يسع السلطان الاحترام لقرار الدول في ديسمبر من السنة نفسها

على ان تتداخل الدول بالقوة في شؤون تركيا ما كان ليحصل مرة الا بعد ان تعيها الخبرات والمفاوضات الطويلة وبعد ان ينقضي وقت طويل يعظم فيه هول الاضطراب والفوضى في ارجاء السلطنة السنية . ولما ظهرت المسألة المقدونية كسفت المسألتين الارمنية والكريديية وكان ابتداء استفحال شأنها منذ سنة ١٨٩٨ وقد أعيا حلها اذكي رجال الوزارات الخارجية في أوروبا على غير طائل . وقد كان يراد ابجاد ولاية مستقلة فيها بالشؤون الداخلية على نحو ما كانت بلغاريا أو بعبارة اصح على نحو ما كانت الرومالي الشرقية قبل أن تستلحقها بلغاريا سنة ١٨٨٥ غير أن مشكلة المشاكل في الموضوع كانت تعدد جنسيات السكان مع طمع وتنافس المالك المتناخمة أي اليونان وصربيا وبلغاريا . ولقد ظل الاقليم العريض المحصور بين الادرياتي وأدرنه مدة طويلة

وهو فريسة العصابات المتوحشة المسلحة من الارناؤد واليونان والصرب والبلغار وكل عصابة منها مرتبة ومنظمة لا لسوى الانتقام والدفاع وقتل أهل القرى المؤلفة من جنسيات معادية كما أن هذه العصابات نفسها كانت كثيراً ما تقع بين برائن الجنود التركية . وكانت ولاية مناسير على التخصيص أهم ميدان لفظائع العصابات ومنكراتها فكان مسلموها ومسيحيوها على السواء يشتركون في النهوض والهياج واليونان والارناؤد من أهلها لا يفتأون يشنون الغارات على الترك والصرب والبلغار من مواطنيهم فكانت تسيل الدماء أنهاراً وبعم الخراب والدمار كل مكان وتنفو غفارت البوار والاختلال فساداً في سائر الجهات . ولم ينتج عن مشروع الإصلاح المعروف بمشروع مرزنج الذي قدمته بريطانيا والنمسا وروسيا لتركيا سنة ١٩٠٤ ما كان يقدر له من النجاح كما أن المعاهدة المبرمة بين تركيا وبلغاريا في ابريل من السنة نفسها والتي بها تعهدت الثانية بمنع الجمييات الثورية من أن تعمل على النكابة بالاولى في أرضها لم تفلح . وقد وجد أن البوليس الذي الفته أوربا سنة ١٩٠٣ بقيادة زعماء من الاجانب غير كاف لتنفيذ الإصلاح الذي رسمه مشروع مرزنج وان القتال والهياج والمذابح لم تقطع لحظة واحدة فكانت الخطوة التالية ايجاد رقابة مالية دولية بعد تظاهر الاساطيل الذي سبقت الاشارة اليه سنة ١٩٠٥ على أن كراهة وعداوة الجنسيات المختلفة المؤلفة منها مقدونيا ما كانت تزيلها مثل هذه الاجراءات بل استمرت المشاحنات جارية مجراها الطبيعي وأهل شأن البوليس الدولي باحتقار ونحر دود الفساد في جسم النظم القضائية ولم تصدر أحكام رادعة على مرتكبي الجرائم العظيمة وعانت عصابات الصرب واليونان والبلغار المسلحة في الارض فساداً فكانت تنقض على القرى الآمنة المطمئنة فتشبع أهلها المساكين قتلا ونهباً ثم تلوذ بشعاف الجيال وبطنون الصخور بعد ان تفعل كل ما تستطيع من الفحش والمنكر هازئة بالترك والبوليس الدولي واللجنة الدولية غير حاسبة لها حساباً أو خاشية لها بأساً . ولم تقف فظائعها قليلا الا بعد حصول الثورة الدستورية التركية تلك الثورة التي تعد من أعجب الثورات التي حصلت في أوربا والتي يعتبر وقوعها أبهر ما وقع في تركيا من الحوادث

نشأت ونمت في أرض تركيا حركة فكرية كان يفتدونها ويسقيها ويتعهدوا بالعناية جماعة من اذكاء العثمانيين الغرباء وكان لا بد لهذه الحركة من نتائج سياسية تنجم عنها كما ان تأثير نتائجها كان لا بد يكون عظيماً

وسبق العلامة المأسوف عليه المستر (جب) غيره من حكماء الاوربيين الى التنبؤ بما سيكون لتلك النهضة الفكرية العثمانية من الشأن العظيم وذلك لان اهتمامه الفائق بدرس الآداب العثمانية وحسن معرفته بها اضطرته الى الاختلاط بادباء الترك وكبار مفكرهم وقادة آرائهم . وقد انفرد بنفسه بين سائر البريطانيين بدقة تقدير ما كان يختمر برؤوس أفراد ذلك الشعب الذي كان يجب آدابه محبة عظيمة ذهبت به الى وقف كل ساعة من ساعات حياته القصيرة على خدمتها كما أنه كان اكبر الاوربيين أملاً بهنضة وارتقاء الامة التركية . ولقد ابان كيف أن منتصف القرن التاسع عشر قد شهد تأثير آداب لغات الغربيين في التعليم والترية وكيف ان جماعة من أذكاء شبان الترك لم يكادوا بشرعون في تعلم الفرنسية لضرورة كونها لغة السياسة حتى تعشقوا آدابها واستهوتهم افكارها فخلت بهم الفاظها الشائقة واستعبدتهم معانيها الزائفة وفنهم ما وجدوا فيها من العذوبة الساحرة وبهرهم ما عثروا عليه في كتبها من آثار البلاغة الظاهرة فذسوا مرارة العربة بحلاوتها واستصغروا كل طلي في جانب طلاوتها . وبعد ان كان الترك الذين يعرفون الفرنسية قبل سنة ١٨٥٠ يعدون عداء لقلتهم أصبح كل رجل وامرأة بعد ذلك تدعي أنها على شيء من التعليم والترية تعرف شيئاً من تلك اللغة قراءة وتحادماً بقليل أو بكثير من الصعوبة . وقد ترجمت في السنوات الاخيرة الى التركية كتب ومؤلفات فرنسية لا تحصى في العلوم الطبيعية والمووضوعات الادبية بحيث تمكن الذين يجهلون اللغات الاوربية أو لا يعرفونها معرفة تامة جيدة من الوقوف على درجة التفكير الاوربي وقد أصبح علماء الترك وأدباؤهم يسرون على النهج الفرنسي في الفلسفة والتثيل والروايات التمثيلية وغير التمثيلية والشعر . وكان مقدم هذه الحركة المباركة شناسي اقندي الذي تعلم وتوقف في باريس ونقل سنة ١٨٥٩ شيئاً كثيراً من الشعر الفرنسي ثم أنشأ في القسطنطينية جريدة لترويج واذاعة الآراء الاوربية وقد عضده التركيان الامعيان كمال وضياء بحيث انه في سنة ١٨٧٦ وأيضاً في سنة ١٨٧٥ أفلقت الافكار الحرة العصرية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها بال الحكومة العثمانية وأزعجت كثيراً فأنخذت كل الاجراءات الشديدة لمصادرتها وتوقيف تيارها ومعارضة تفوذها والضرب على ايدي اربابها ومروجيها ومعاقبتهم بالذني الى ممالك أوروبا الغربية . ولما مات اولئك الزعماء طيب الله ثراهم وعطر ارض منقاهم خيل للناس ان النصر النهائي كان لارباب القديم الرجعيين وان حركة الحرية

الفكرية الآيلة الى الحرية السياسية حتما قد دقت عنقها على ان هذا الوهم لم يبد للاديب الاسكوتلاندي نعني به المسترجب المشار اليه صديق الترك واللغة التركية . لانه لم يكن اعلم منه انسان خارج عن دائرة تركيا الفتاة بحقيقة الحال . فكان يعتقد ان الحركة لم تنقطع جذورها وانها عاملة مستمرة في بطن وخفاء وانها لا بد يوماً تظهر وتتغلب على رجال المايين المتحكين في شؤون الدولة وادارتها كما انها لا بد تقلل من تأثير علماء الشرع الجامدين وقد جاءت الايام بما دل انه كان على حق فيما يعتقد وليس ادل على اعتقاده ذلك من قوله<sup>(١)</sup> «لقد تغيرت احوال تركيا الاخلاقية والفكرية تغيراً ظاهراً وهذا التغير وان لم تبد له نتائج فعلية الى الآن الا ان الدلائل قائمة على وجوده في كل مكان فقد نشأ عند الترك مدلول جديد للفظ واجب وكان الدين في سالف الزمان هو السكل في السكل ولم يكن التركي في سابق امره ليعلم غير انه مسلم وكفى فلم تكن لديه فكرة الجنسية على الاطلاق. ولذلك كان اذا سار الى الحرب لا يسير لاعلاء شأن او توسيع حدود تركيا بل قضاء لشهوة الفتوح والسيادة او على الخصوص قهراً للكافرين والمشركين واذلالهم تحت اقدام عباد الله المخلصين المؤمنين . وكذلك لم يكن لديه للوطنية معنى مثل المعنى المعهود لدى الفرنجة ولم يكن ليفرق بين الموت في سبيل الوطن أو الموت في سبيل خط الزوال » أما الآن فقد تناول التغير هذا الموضوع أيضاً واصبح اترك اليوم لا يقصدون شيئاً او يحبون امراً حبه لوطنهم . وحملهم حب التغير والاصلاح على جعل لفظ «ملت» يدل لا على الجماعة الذين يدينون بدين واحد او يتعلقون باهداب مذهب واحد بل على الشعب أو الامة . ولا ينبغي أن ننسى اللفظ الثالث الذي جعلوا له معنى جديداً غالي القيمة اعظيم الاعتبار وجعلوه يؤلف مع اللفظين المتقدمين وهما « وطن - ملت » الثالث السياسي الذي يعبه شبان الترك ويسجدون له ونعني بهذا اللفظ « حرب » . والالفاظ الثلاثة هي الالفاظ التي تداولها الترك من يوم ان فكروا في ترك القديم الضار ونقل الحديث الصالح وهم يتوارثون معانيها السامية كبراً عن كبر ويعتقدون ان نهضة واصلاح الدولة التركية لا تكون الا بنقش هذه الالفاظ الثلاثة على صفحات الصدور . ولذلك راح كثير من اذكياء الترك ومفكرهم شهداء اذاعة هذه المبادئ الحديثة بعد ان فازوا بتعميمها بين جماهير مواطنهم فكان الانقلاب الفكري العثماني من اكثر

حوادث الايام الاخيرة خطيرة وأهمية وغرابة . وساعد على تقوية هذه الحركة المباركة فشو التعليم والتربية بين سائر الطبقات ذكوراً واناثاً وانزوت تلقاء ذلك الخرافات القديمة التي ألقوها بالدين ظلاماً كما انزوت خرافات المسيحية في ممالك اوربا أمام قوة العلوم الطبيعية وسائر ضروب الفنون وصنوف المعارف الحيوية النافعة . صحيح ان الاقدي المصري من الاتراك اليوم لا يزال يعتبر نفسه مسلماً ولكنه لا يزيد في تعلقه بالاسلام عن تعلق متنوري الفرنجة بالديانة المسيحية

« فانت ترى أنه في عشرين سنة ( من ١٨٥٩ - ١٨٧٩ ) قد انتقلت تركيا من حال الى حال ، من حضارة شرقية قديمة الى حضارة غربية عصرية . لقد ادت سائر الحوادث التي سبقت أيام السلطان سليم الشهيد الى حدوث الثورة الفكرية التي نحن بصدها ولا يعلم الا الله ماذا يكون من امرها بعد ذلك »

ونحن نزيد على ما تقدم قولنا انه قد مضت عشرين عاماً اخرى قبل ان تحترق الآمال الحلوة اللذيذة التي كان يرجوها ذلك الاسكوتلاندي العالم - عشرون سنة من الاضطهاد والعذاب والقنوط بل الركود الآسن . ولكن الحقيقة ان تركيا الفتاة كانت تستجمع قواها في خفاء وصمت وان المنفيين في باريس وجنيف ورومية ولندرة لم يكونوا عبارة عن ادباء فقط لهم افكار وآمال سابقة كثيراً لاوانها بل كانوا متشرعين وأساتذة في الطب والعلوم الطبيعية منضماً اليهم جماعة من الاعيان أيضاً والسلك مشتركون في مقت وكرامة حاشية السراي التي ملكت على السلطان اذنيه . وقد بدأوا بنشرون من سنة ١٨٩٥ المطاعن في حكومة الاستانة لذلك العهد فكانوا كلما زادوا في التنديد بها زادت في منع مطبوعاتهم من دخول البلاد وضاعفت الحكومة عدد الجواسيس وعملت احصاء دقيقاً للسكان وأمرت بجز كل ما يرد على الجمارك من الكتب والنشرات . وفي سنة ١٩٠١ أمرت كل اسرة تركية جعلت في خدمتها معلماً او مربية افرنكية باقاتها وطردها في الحال واشتد الضيق الى درجة آثر معها الالوف هجرة الاوطان على البقاء بدار الذل والهوان وفضلوا شم الحرية الفكرية والقولية في بلاد الغربية على الاسر والقيود في مسقط الرأس . ولكن محال على كل حال أن ينال التضيق منالا من التعليم والتربية الحديثة اذا اشرب كل منهما الافكار الاوربية العصرية . فالتعليم العالمي رغب الناس في الحرية والمساواة الاجتماعية من غير اعتبار جنسية او عقيدة . لذلك نابر شبان تركيا الفتاة على تهريب مطبوعاتهم ومؤلفاتهم ودرس

رسلهم ودعاهم في كافة أنحاء السلطنة

وليس من السهل تحديد المسؤولية الواقعة عليهم في المشاكل المقدونية ولكن من الواضح أنهم اجتهدوا في جذب الجيش الى جانبهم . وكان تدمير الجنود العائدة من الحملات العربية غير مدفوعة رواتبها غير معتنى بغذائها منهوكة القوى من متاعب الحروب في الصحراوات خير ارض خصبة لالقاء بذور الثورة والتمرد . وقد تم هذا



نيازي بك

اولا بنجاح في بلاد الاناضول فقامت العساكر بمظاهرات على غاية النظام والاحكام ولم يحصل من تظاهرتهم مذابح أو مشاغبات أو خلافات مذهبية بل كانت حركتهم مقدمة لتلك الثورة الهادئة التي احكمت تديرها وأحسن تسييرها جمعية تركيا الفتاة وكانت الحرب اليابانية قد حملت العثمانيين على الاعتقاد بان المستقبل للاسيويين فانبرت الفرس الى التعلق باهداب النظام الدستوري وكان لا بد لتركيا من السير في أثرها وكانت كل طبقات العثمانيين شاعرة بضرورة حصول ثورة الا طبقة المايين التي

أحاطت بعبد الحميد في قصره من كل جانب كما يحيط بالعنكبوت النسيج الذي ينسجه  
وكانت قد تألفت في جنيف سنة ١٨٩٠ من رجال تركيا الفتاة جمعية يدعوها  
الاتحاد والترقي انتقلوا بها الى باريس ثم الى سالونيك سنة ١٩٠٦ . وكان مراد الجمعية  
أن تنادي ببدء الثورة في ٣١ أغسطس وهو يوم عيد جلوس عبد الحميد ولكن  
الحوادث اضطررتها الى المبادرة بالعمل قبل التاريخ المذكور . وذلك ان الاتحاديين



انور باشا

خشوا تداخل أوروبا بعد أن علموا بمقابلة ادورد السابع وقيصر روسيا في « ريفال » .  
وكان عبد الحميد قد استعد لقمع الفتنة العسكرية التي علم بوجود مقدماتها من جواسيسه .  
وكان الاتحاديون قد اكتسبوا ثقة الالبانيين وعطفهم بعد أن أقدموهم بعدم فائدة التعدي  
على النمساويين الذين يريدون جمع الاعانات وعمل الاحتفالات لمدرستهم في اسكوب .  
وكان الالبانيون يريدون محافظة على قواعد الآداب منع اقامة المراقص والمفاسق

المنوي اقامتها لهذا الغرض ومهاجمة القطار المقل للمحتفلين ومنع نشر الاعلام التمسوية في أرض عثمانية فانصاعوا الى مقالة اخوانهم في العثمانية وعلموا ان مثل ذلك التحرش برعايا دولة قوية طامعة لا يكون من ورائه الا الاحتلال النسوي ثم انضموا اليهم وكتبوا جميعاً تلغرافاً الى السلطان يطلبون اعادة تنفيذ دستور سنة ١٨٧٦ . وكانت حوادث تجري في غضون ذلك تدل على انتشار الثورة بين الضباط والجنود الذين قتلوا بعضاً من الضباط الرجعيين وقام نيازي وأنور بالبداة للدستور وتعين سعيد باشا كوجوك



سعيد باشا كوجوك

صدراً أعظم في الثاني والعشرين من يوليو . وفي الرابع والعشرين نشر السلطان ارادة سنية باعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦ الذي أوقف العمل به منذ سنة ١٨٧٨ . وقد أنيت في الحال الرقابة على المطبوعات وابطلت أنظمة الجواسيس ودعي مجلس مؤلف من ٢٠ عضواً ينتخبهم مندوبون كل مندوب منهم يختاره جماعة من الذكور البالغين الذين لا يقل عمر أحدهم عن ٢٥ سنة . ولا تسلم عن الفرغ والسرور الذي شمل السلطنة من أقصاها الى أقصاها باعادة العمل بالدستور فقد تأخت عناصرها المختلفة



وتخالفت جنسياتها المتباينة وتصانف أتراكها وبلغاريوها وأروامها ورومانيوها ويهودها ومسلموها وزالت سائر الفروق وجعل الناس لا يعرفون نحت سماء البلاد غير لفظ عثماني وتعاقب في جهات كثيرة الشيخ والقسيس كما أن زعماء العصابات المقدونية أخذوا إلى الدعة والسكينة بعد طول الهياج والشغب وصدقت أوربا طرباً و إعجاباً بحدوث ما حدث من غير اراقة دماء تذكر وصرحت انكلترا بلسان وزير خارجيتها السير ادورد غراي بأن المسئلة المقدونية وما شاكلها من المسائل قد اختفت نهائياً

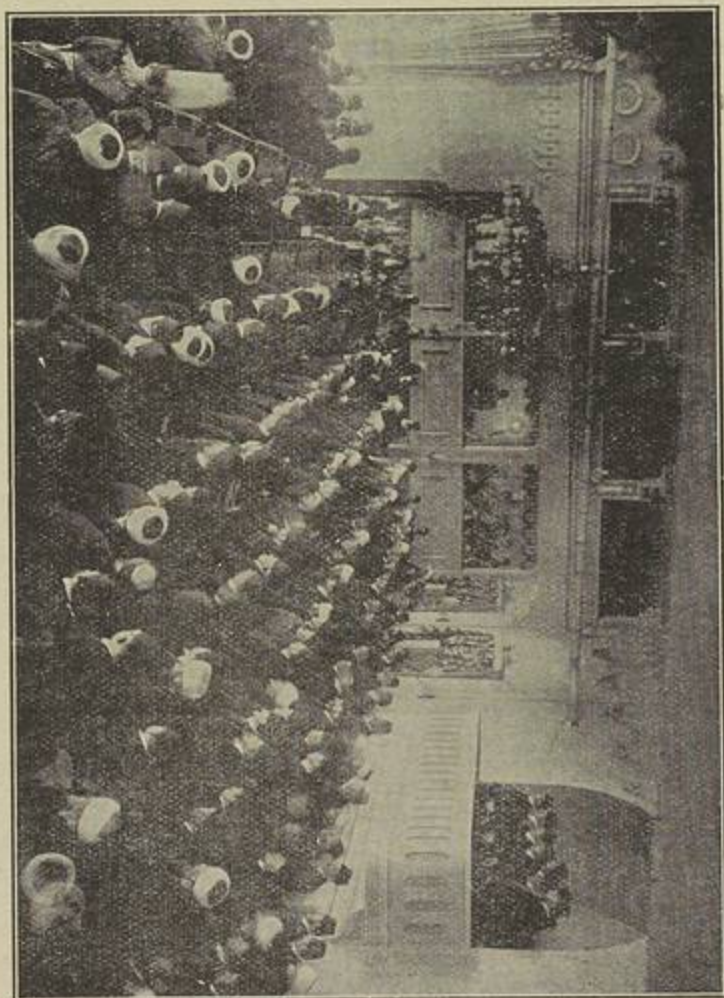


كامل باشا

بظهور الدستور ورحب أحرار البريطانيين بالنظام العثماني الجديد . وجرت جملة مظاهرات ابتهاج وغبطة في كل مكان وابتعد الاتحاديون عزت باشا العابد وأقلوا وزارة سعيد كوجوك وجعلوا كامل باشا عوضاً عنه وصادروا أملاك الذين اتفقوا بمبادئ الحكم الحميدي القديم . ووقت بهم دول أوربا بحيث ألغت رقابتها الاجنبية عن مقدونيا فاستدعت ضباط الجندرية ورجال اللجنة المالية وتركت سائر أمور الدولة لحكمة جمعية الاتحاد والترقي وفطنتها

غير أن دولتين من دول أوربا انتهزتا فرصة اضطراب الاحوال في الدولة

وأعلنت الأولى منها وهي بلغاريا في الخامس من اكتوبر سنة ١٩٠٨ استقلالها وتنادت في طرنوه باميرها قيصرأ عاماً على البلغارين كما أعلنت ثانياً وهي النمسا بعد ذلك بيومين استلحاق البوسنه والهرسك نهائياً بعد أن خشيت تأثير الدستور العثماني



افتتاح مجلس البرلمان

في تينك الولايتين. وقد أغضب عمل الولايتين المذكورتين صربيا والجبل الاسود وجعل الثاني يتهدد الدول بأنه تلقاه فعل بلغاريا والنمسا أصبح غير مقيد بالمادة ٢٩ من معاهدة برلين فيما يتعلق بميناء اتيفاري وقابلت تركيا ذلك بالاحتجاج وبمقاطعة البضائع

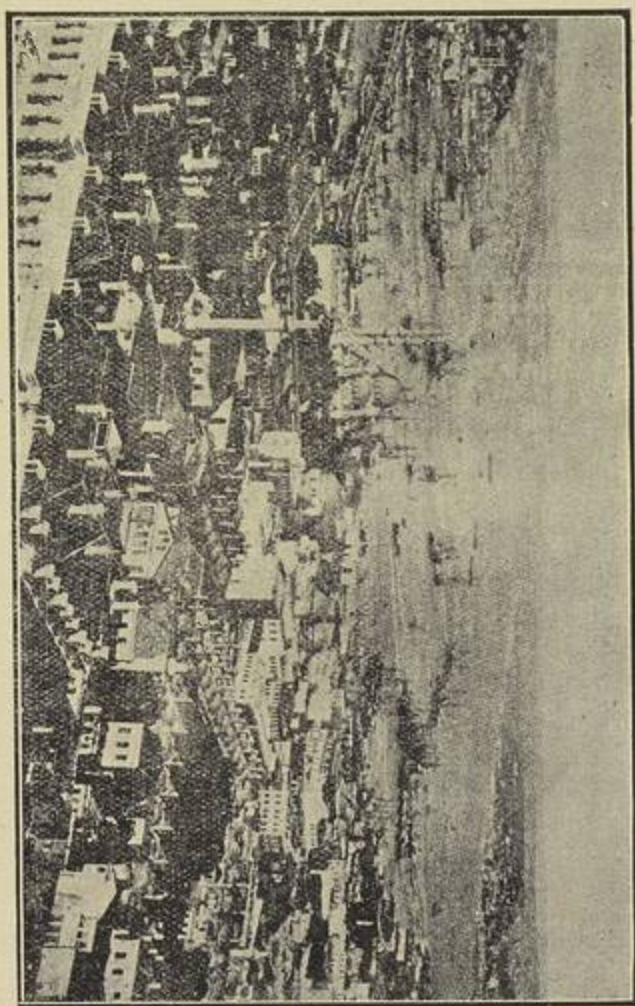
النسوية دون ان تستطيع الظهور بمظهر القوة والدفاع عن حقوقها بالسلاح . ثم انهمكت في أعمال حكومتها البرلمانية فتمت الانتخابات وافتتح السلطان مجلس المبعوثان في العاشر من ديسمبر واثمن فيه اخلاصه الدائم للدستور وأشار الى تعدي النمسا « ووالي ولاية الروملي » . وجعلت جمعية الأتحاد والترقي تظهر قليلاً قليلاً بمظهر صاحب السلطة والامر والنهي فاقالت كامل باشا انتقاماً منه لأنه طرد وزيره



شوكت باشا

الحرية والبحرية وهما من رجالها . الا ان جمعية الامركزية برئاسة اسماعيل كمال بك تصدت لها كما ان ثورة رجعية قامت في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ في الاستانة بحريض ودسائس عبد الحميد وبمعاونة الرجعيين وانصار الحال القديمة واحتل جماعة من الجنود قصر مجلس المبعوثان وقتلوا بعضاً من ضباط الجمعية وتغيرت الوزارة وقتل بعض الوزراء ومع ذلك عفا السلطان عن رجال الحركة الرجعية في الاستانة كما اغض العين علي حوادث الارمن اذ ذلك فقامت المذاج فيهم في كيليكيا على ساق وقدم

ولذلك عزم رجال جمعية الاتحاد والترقي على معاقبته ومحاسبته حساباً عسيراً . فلما وصلت الاخبار الى سالونيك زحف المرحوم محمود شوكت باشا بجنوده الالبان على



الاستانة مطبخ اصدار النساء الارمنية

الاستانة لحماية الدستور الذي حلف بين الطاعة له واجتمع اعضاء مجلس الاعيان واطباء مجلس المبعوثان في سان اسطفان بهيئة جمعية اهلية وقرروا وجوب اطاعة أوامر هذا القائد وكان يريد نشر الاحكام العرفية ومعاقبة الرجعيين وتقليل حرس

القسطنطينية وكان قد انضم غالبه الى اعداء الدستور . فلما اجيب الى ما طلب دخل العاصمة في الخامس والعشرين من ابريل واشتبكت جنوده خمس ساعات بجنود انصار الاستبداد القديم اولئك الذين كانوا اولاً أحراراً أرسلتهم الجمعية من سلانيك للحلول محل حرس السلطان الاقدمين من الالبانيين فما عثموا ان صاروا رجعيين بتأثير عبد الحميد واعوانه . وبعد ان تبودل اطلاق المدافع والبنادق بين رجال الوطن الواحد الذين فرقهم الاهواء شيعاً ومزقهم الاغراض فرقاً نصبت المشانق علناً لاعدام



السلطان محمد الخامس

المحرضين ثم اجتمع اعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان واغلقت دونهم الابواب في السابع والعشرين من ابريل وقرأت عليهم الفتوى بخلع عبد الحميد بعد ذكر سائر سيئاته واعماله مما لا ينطبق على نصوص الشرع الشريف فاصدروا قراراً بالاجماع باقالته وتنصيب اخيه محمد رشاد باسم محمد الخامس . وكذلك سقطت الداهية الذي ادهش ساسة أوروبا ولعب بعقولهم مدة طويلة مع كونه أمعن في ظلم البلاد والعباد وتعالى في ركوب متن التجبر والاستبداد وقد نقلوه من سراي يلدز الى سالونيك ثم نقل منها بعد مدة الى القسطنطينية بعد أن صودرت ذخائره وكنوزه مما قدر عليهم من الجنيحات

## الفصل السادس

### المسئلة الشرقية واستقلال العناصر

السلطان محمد الخامس - استيلاء النمسا على البوسنة والهرسك - اعلان استقلال بلغاريا - سياسة العناصر - الالبانين قديماً وحديثاً - مطامع ايطاليا في طرابلس - حرب ايطاليا وتركيا - عقد معاهدة برلين - الحرب البلقانية واسبابها - بلاغ الكونت برخنولد - بلاغ البلقانيين النهائي - سير الحرب وانتصار البلقانيين - رأي انكتره بعد الانتصار - الهدنة - الحرب ثانية - حسن دفاع أدرنه وانيا - الزحف على شاطئة وتمهيد الاستانة - شروط انصالح - الحرب بين البلقانيين واسترجاع أدرنه

كان السلطان محمد الخامس طوع اشارة جمعية الاتحاد والترقي<sup>١</sup> ولا عجب فقد كان قليل التجربة غير بصير بامور السياسة وتصريف الامور . جعله اخوه السلطان عبد الحميد رهين قصر لا يرحه وقد قضى عشرين عاماً من غير أن يطلع على جريدة ! ! واستفتح عهده بثورة الالبان الذين ابوا دفع الاموال الاميرية كما ان دعياً من دعاة المهذوبة ظهر في اصقاع اليمن . وفي مستهل سنة ١٩٠٩ أمضى الاتفاق التركي النمساوي وبه اعترف الباب العالي باستلحاق النمسا لاقليمي البوسنة والهرسك في مقابل تسلمه سنجق نوڤي بازار الذي اخذته الجنود النمساوية واخذ ٢٥٠٠٠٠٠ ليرة وقد غاظ الصرب والجبل الاسود ضم البوسنة والهرسك الى النمسا لان غالبية سكانهما من العنصر السلافي الذي كان لها المطمح في ضم شتاتة اليهما . ولم تستطع اوربا مناصرتها خصوصاً وقد كانت المانيا تؤازر النمسا وانكلتره لا تستطيع مساعدة الصرب باسطولها خوفاً من المانيا ولان الصرب دولة لا ساحل لها والروسيا اضعف من أن تنصر البلقانيين على النمساويين لخروجها من حرب اليابان خائرة القوى

ولما اعلن فردينند ملك بلغاريا انه مستعمل عن تركيا استقلالاً تاماً احتجت تركيا وغضبت فترضها بلغاريا . ٣ ٢٨٠ ٠٠٠ ليرة فابت واصرت على عوض لا تقل قيمته عن ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فتدخلت روسيا في الامر واقترحت حلاً فيه رضا الفريقين وقد كان لروسيا عند تركيا ٧٤ قسطاً سنوياً من اقساط غرامة الحرب الاخيرة التي نشبت بينهما فتنازلت روسيا عن ٤٠ قسطاً يعادل مقدارها الفرق بين العوض الذي تطلبه تركيا من بلغاريا والعوض الذي اقترحت بلغاريا دفعه واقترحت روسيا أن تدفع

لها بلغاريا ال ٣٢٨٠.٠٠٠ المزمعة الدفع لتركيا في نظير بقية الاقساط المستحقة لروسيا على تركيا ويكون دفع بلغاريا اقساطاً سنوية لا يزيد كل قسط عن ٢٠٠.٠٠٠ ليرة . وقد سقنا هذه العبارة للقارئ ليستدل منها على مبالغ شغف روسيا بمساعدة البلغانيين واضعاف تركيا تقريباً لاجل حل المسئلة الشرقية

وفي بدء حكم السلطان محمد الخامس ألحَّ الكريتيون في الاستقلال عن الدولة العثمانية استقلالاً تاماً نهائياً وقالوا انهم تابعون لليونان وارسلوا نواباً عنهم في مجلس النواب اليوناني وبعد اعتراض تركيا ومفاوضات طويلة بين الدول الحامية للجزيرة ارغم الكريتيون على الاعتراف بسيادة السلطان وتأجل اتصالهم بدولة اليونان الى حين

واساء الاتحاديون سياسة العناصر الغير التركية وخالف القول العمل فاندلعت نيران الثورات في كل مكان خصوصاً في البانيا التي رام أهلها الاستقلال والانفصال عن تركيا بعد ما علموا ان قهرهم على دفع الاموال الاميرية لا يفيد تحسين أحوالهم فائدة تذكر

والبانيا بلاد يسكنها مليون ومائة واربعون ألفاً منهم ثمان مائة الف من المسلمين ومائتان واربعون ألفاً من الارثوذكس ومائة الف من الكاثوليك

والالبانيون يختلفون عن سائر العناصر البلقانية بلغتهم وأخلاقهم وعاداتهم التي حفظوها على توالي الايام فالالباني او ابن النسر يبعد الشرف ويهوى الحرية ولا يقبل على الضيم فقل اهانة تاحق به يعقبها انتقام دموي هائل

ولم يشد الالبانيون دولة في زمن من الازمان ولكنهم شوهوا في جميع الحروب والغزوات فاجتاحوا الشرق مع اسكندر المقدوني وحاربوا الرومانيين مع بيروس وقاتلوا الصقالبة بعد وصولهم الى البلقان واشتركوا مع السلطان مراد في معركة قوصوه ثم انقلبوا على الترك في زمن اسكندر بك الزعيم الالباني الشهير وحاربوهم دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم

وقد رأى السلاطين العثمانيون أن يحسنوا معاملة الالبانيين وبسببهم اليهم بالحكمة واللين فاعفواهم من الضرائب والاموال الاميرية وعينوا منهم الصدور العظام واجتنبوا الدخول في شؤونهم الداخلية فتطوع الالبانيون في الجيش العثماني عن طيبة خاطر واعتنق معظمهم الاسلام

وقد ظهرت الفكرة القومية في البانيا في أوائل هذا القرن وأخذت تنتشر يوماً فيوماً الى أن بلغت حدها الأقصى أثر اعلان الدستور العثماني فاجتمع بعض زعماء الالبانيين وطلبوا من الحكومة العثمانية أن تجعل اللغة الالبانية اللغة الرسمية في بلادهم ثم عقدوا اجتماعاً آخر في مناستير طلبوا فيه أن تنشأ مدارس جديدة في البانيا وأن تكتب اللغة الالبانية بحروف لاتينية . فارتعدت فرائص الترك من جراء ذلك لانهم أدركوا أن البانيا حصنهم الوحيد في اوربا وأن ابتعادها عنهم يقضي عليهم بالرحيل الى اسيا فرغبوا في القضاء على الفكرة القومية فيها وعهدوا الى بدري باشا والي اشقودره في ذلك الحين في اتخاذ التدابير اللازمة لذلك ( سنة ١٩١٠ ) فاسرع بدري باشا الى تنفيذ أوامر الاستانة ومنع الالبانيين من حمل السلاح في المدن فعادوا ذلك اهانة لهم واعربوا عن استيائهم من سياسة الحكومة العثمانية ثم عقب ذلك شنع بعض زعماء الالبانيين في الاستانة أثر خلع السلطان عبد الحميد وقرار الحكومة على احصاء سكان البانيا توطئة لتجنيدهم وفرض الضرائب عليهم فشقوا عصا الطاعة وجاهروا بالمصيان فجاءهم شوكت طورغود باشا بجيش كبير وقع ثورتهم بشدة لم يسبق لها مثيل وأصدر أمره بجمع السلاح منهم ولكن السلاح الذي جمعه كان قديماً وظل السلاح الجديد بين الالبانيين فغنموا أول فرصة سنحت لهم وأعلنوا الثورة هذه المرة باسم القومية وطلبوا الاستقلال الاداري التام وتدریس اللغة الالبانية وحدها في مدارسهم بعدما تكتب بالحروف اللاتينية واتفق الاموال الاميرية كلها على اصلاح بلادهم

وقد انتشرت الفكرة القومية بسرعة عظيمة في البانيا فتعدت المفكرين الى جميع طبقات الشعب وحامت الشيبية وبعض الزعماء باستقلال البانيا التام وجعلها واسطة لابرار اتفاق بلقاني متين ومحوراً تدور عليه سياسة البلقان المقبلة وأما الترك فرفضوا اجابة الالبانيين الى مطالبهم وجرروا عليهم حملة كبيرة ولكنها لم تستطع الثبات أمامهم فآكرهت على التقهقر الى ما وراء اشقودره . ولما أرسلت الحكومة طورغود باشا لشد أزر هذه الحملة على الالبانيين الذين في الشمال ثار المردة الذين في الجنوب من اشقودره بشرق واشترك المسلمون والمسيحيون في الحرب فادركت الحكومة حرج موقفها ونهجت خطة المسالمة واللين في البانيا فاصدر خليل بك وزير الداخلية العثمانية في ذلك الحين أمراً بفتح المدارس الالبانية وزار السلطان



محمد رشاد سهل قوصوه في ١٦ يونيو سنة ١٩١١ وأصدر عفواً عاماً عن الذين اشتركوا في العصيان وفي ٢١ منه دعا طورغود باشا زعماء المالميسوريين الى اجتماع في نوزا فرفضوا ذلك لعدم تقمهم به ودارت رحى القتال ثمانية في ٢٤ يونيو ولكن المالميسوريين الذين رفضوا مفاوضة طورغود باشا لشدة كرههم له كانوا يفاوضون في تلك الاثناء صدر الدين بك معتمد تركيا في شتىه فوعدهم بفتح المدارس المقفلة واصلاح الطرق وادارة بلادهم على اساس اللامركزية مقابل أخلاصهم الى السكينة على أن الترك لم يعنوا بوعودهم هذه المرة أيضاً لانهم كانوا يخشون أن تقضي العناصر العثمانية أثر الالبانيين في طلب اللامركزية الواسعة فتفاهم الحطب وتكلم سفراء الدول في المسئلة

ولم تكن النمسا لتغض الطرف عن البانيا لانها الطريق التي تؤدي الى البحر والحصن الذي يتوقف عليه صد اطماع الصقالبة ومنع تقدمهم فنشأ عن ذلك تفاهم الحلاف بينها وبين الصقالبة من جهة وبينها وبين ايطاليا من جهة أخرى لان ايطاليا تعد نفسها وارثة الرومانيين وبهها بحر الادرياتيك دفاعاً عن شواطئها بلادها وفي شهر مايو سنة ١٩١١ تمكر صفو الصلات بين تركيا والحيل الاسود بسبب التجاهل الثائرين الالبان اليه وقررت حكومة تركيا الحرب على حكومة الحيل لولا ظهور روسيا بمظهر المدافع عنه ثم اجازت تركيا لاهل البانيا استقلالياً داخلها وأصح النطاق ولم تكدر تركيا تفرغ من مشاكل الثورة الالبانية حتى ساقط اليها الاقدار مصائب حرب خارجية . وذلك انه كان للايطاليين في طرابلس مطمح من زمان طويل وكانوا يرمقونها بانظارهم منذ استحوذ الفرنسيون على تونس وغلبوا الايطاليين على ملكيتها . قالت ايطاليا ان فرنسا أخذت تونس وانا آخذ طرابلس وهي نصيبي من املاك تركيا الافريقية وقد زعم الايطاليون أن الاتراك اقاموا العقبات امام الايطاليين ولم يرحبوا بهم « في طرابلس حيث رحبوا بغيرهم وانكروا عليهم ما أجابوا سواهم اليه » على أن وزير خارجية ايطاليا كان لغاية ٩ يونيو سنة ١٩١١ يزعم أن سياسة ايطاليا موجهة نحو المحافظة على بقاء الاحوال على ما هي عليه في أمور الدول وانها تؤيد المحافظة على سلامة تركيا واملاكها في افريقية وغيرها من الجهات . وبعد هذا التصريح بمدة أي في أوائل يوليو زار ولي عهد تركيا مدينة رومية وقوبل فيها بترحاب عظيم

وفضلاً عن ذلك فقد حافظت إيطاليا على ولائها للباب العالي أثناء فتنة البانيا وشدت في منع تهريب السلاح والذخيرة الى الثائرين ولذلك فوجيء العالم ودهش من بلاغ إيطاليا النهائي للحكومة العثمانية المحرر في ٢٦ سبتمبر والذي فيه من أسباب الحرب « حالة الفوضى والاضطراب الضاربة اطنابها في طرابلس وبرقة ومعارضة كل مشروع ايطالي واثارة الفتنة والفوضى على نزلاء الايطاليين » تلك الاسباب التي انكرها كل عاقل منصف في العالم ولم يجد لها أشد الناس مقتناً للدولة العثمانية مبرراً .

وكان ملك إيطاليا ورئيس وزرائها السنيور جيولتي على ما يقال لا يريدان حرباً ولكن الحزب الوطني الايطالي والعنصر الصقلي في الوزارة والرأي العام ومصرفاً من المصارف التي كان لها العلاقات العظيمة بطرابلس والرغبة في مغالبة الضعيف على ما بيده كل ذلك حمل الحكومة على شهر الحرب وانتهت الحرب في ليبيا - وهي التسمية الايطالية لاقليم برقة وطرابلس - بخروج آخر اقليم افريقي تركي من أحضان حكومة الباب العالي وأصدر ملك إيطاليا في ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ أمراً عالياً بانضمام طرابلس وبرقة الى حكومة إيطاليا .

على ان الحرب الايطالية الطرابلسية اثرت في أحوال جزائر بحر الارخبيل وكانت حكومة إيطاليا في مفتتح الحرب قد أرسلت الى معتمديها في عواصم البلقان تقول انها مع حربها مع الدولة العثمانية تؤيد بقاء الاحوال في البلقان على ما هي عليه وانها لاتعترض أي حركة يقصدها الخروج على سيادة تركيا في البلقان . ولما ضرب الاسطول الايطالي ثغري بريشيزا وسان جواني دي مادوه بمدافعه اعترضت النمسا على إيطاليا وذكرتها باحترام قرارها السابق أي بقاء حال البلقان على ما كان . ولما انبرى حماة برقة وليوث طرابلس وصناديد العرب لحرب إيطاليا وقاموا في وجهها سداً واصولها ناراً حامية واذاقوها وبلاً ونكلاً وبطأت أعمالها ولم تتقدم الى أبعد من مرمى قذائف اسطولها ضاقت بالحرب ذرعاً وأرادت مضايقة الدولة العثمانية في جهات اخرى فاغرق اسطولها بعض سفن تركية في مياه بيروت وضربت ثكنات الجنود في جزيرة ساموس وفي مدخل الدردنيل بالمدافع . ثم اقتحمت مدخل الدردنيل بقسم من سفن الطوربيد . وفي ابريل ومايو من سنة ١٩١٢ احتلت جزيرتي رودس وكوس وعشر جزائر أخرى صغيرة . فلما رأى سكان الجزائر منها ذلك أرسلوا عنهم مندوبين في مؤتمر عقد في بانموس في ١٧ يونيو وقرروا رغبتهم في الانضمام الى

حكومة اليونان في المستقبل وأنهم يقيمون جزائر بحر الارخبيل التابعة لتركيا والتي احتلتها ايطاليا حكومة مؤقتة ذات علم خاص . فلما علمت ايطاليا بقرارهم أنكرته عليهم فولدت المشككة الطرابلسية مشككة أخرى تدعى مشككة الجزائر . وفي ١٨ أكتوبر عقدت معاهدة الصلح في لوزان بين تركيا وايطاليا التي قررت اخلاء الجزر والعمو عن مسلك أهلها بعد جلاء العثمانيين عن برقه وطرابلس

ولا يشبه اعتداء الايطاليين على طرابلس الا اعتداء الفرنسيين على الجزائر اذ انتهزوا فرصة ضعف الدولة واضطراب حال الجزائر فهاجموا بمحجة الانتقام من والها لاهانة ألحقها بالقتل الفرنسيساوي وما زالت الحرب ناشبة بين الفرنسيين والجزائريين بقيادة البطل الشهير الخالد الذكر السيد عبد القادر الجزائري حتى سنة ١٨٤٧ حيث بسطت عليها جناح سلطتها الى اليوم . والا اعتداء الفرنسيين ايضاً على تونس سنة ١٨٨١ اذ زعموا ان قبائل منها تغير على حدود الجزائر فجردوا جيشاً أمعنوا به في داخلها وارغموا سمو الباي على قبول الحماية التي بسطوها عليها والتي صارت بها تونس أسوأ حالاً من مستعمرة فرنسية تابعة رأساً لحكومة باريس . فانت ترى ان امتلاك فرنسا للجزائر واعتدائها على تونس ثم هجوم ايطاليا على طرابلس لا سبب له الا العدوان الصريح والشراسة الاستعمارية والعمل على اقتسام ميراث « الرجل العليل » أي تركيا بزعمهم . فالسياسة لا قلب لها ومبادئ الشرف والعمفة لا ذكر لها في دستور الامم الاستعمارية والحق عندهم للقوة والضيغ لقمه سائغة وطعمه زرد وما بقاؤه حياً الا لاختلافهم على ميراثه وتشاحنهم على اقتسام أسلابه . ولنعذ الى ذكر السبب الذي دعا العثمانيين الى الاسراع في مصالحة الايطاليين وامضاء شروط صلح لوزان في حين كانت كفهم الراجحة ولم يفز الايطاليون باكثر من ساحل طرابلس مع احتلال بعض جزائر بحر الارخبيل فنقول :

كانت المعاهدات التي تقدمت معاهدة برلين تقضي باحترام السيادة العثمانية . أما معاهدة برلين فانها وضعت السلطنة العثمانية تحت وصاية اوربا وأجازت تصدي الدول العظمى للشؤون العثمانية ثم قررت منح البلغار استقلالاً ادارياً كاملاً وأوجبت على الحكومة العثمانية أن تعترف باستقلال الجبل الاسود . ومعاهدة برلين وان كانت قد منعت روسيا من انشاء دولة بلغارية واسعة النطاق فانها تركت مواضع كثيرة للخلل السياسي ودواعي حمة للطمع ونامت الدول الواضحة لتلك المعاهدة عن العمل لصباتها

فنشأ عن هذا كله ان الامارة البلغارية ضمت اليها الروملي الشرقية سنة ١٨٨٥ ثم أعلنت استقلالها وارتقاءها من امارة الى مملكة سنة ١٩٠٨ فهتكت حرمة تلك المعاهدة مرتين ثم ضمت النمسا البوسنه والمهرسك الى أملاكها من جهة أخرى فهتكت حرمتها أيضاً

وما زالت دول البلقان منذ سنة ١٨٧٨ تطلب زيادة على ما ربحت من تلك المعاهدة وقام الخلاف بينها على الاراضي العثمانية المضموع فيها وصارت كل دولة تنازع الاخرى أشد المنازعة حتى اصطبغت هضاب مقدونيا بدماء البلغاريين والصربيين واليونانيين والرومانيين . قال المسيو شوبليه في تاريخه للمسئلة الشرقية بعد مؤتمر برلين « ان هذا المؤتمر زاد ضعف تركيا واشتياق رعاياها الى الاستقلال كما زاد قوة أعدائها في البلقان » وكل من يتنزه عن الغرض يحكم اذاً بان شرطاً من تبعة الفوضى التي فشت في البلقان يلقي على تركيا لانها أغفلت الاصلاح فوسعت أبواب الشكوى وأقامت لحصومها الحجة عليها وبان الشرط الثاني هو نصيب الدول العظمى التي وضعت معاهدة برلين ونصيب الدول البلقانية التي ملات البلقان من الدسائس والسعايات والمنازعات بلوغاً الى اغراضها وتحقيقاً لاطماعها

وكانت تلك السعايات والمنازعات من شأنها أن تجعل الاصلاح مستحيلاً أو صعباً جداً . ثم أخذت العصابات المختلفة تسلم سلاحها الى ولاة الامور ابتهاجاً بالدستور العثماني فلما كان ما كان من أمر هذا الدستور وشبت الحرب بين ايطاليا والدولة العلية وثبتت لسانة الدول البلقانية ما قام في الاستانة من الخلل الذي هو أبو المفاسد عادت الفوضى ثم تناست الدول البلقانية عداوتها ودفنت مشاحناتها لتتحالف على « العدو العام »

واسباب الحرب ( اولاً ) ما انطوت عليه الصدور وانحنى فوقه الضلوع من الحقد القديم والضعينة الازلية بين الاراك والامم البلقانية المتحالفة ( ثانياً ) طمع كل دولة من الدول البلقانية المتحالفة باسترجاع مجدها القديم وبسطة ملكها الفابر ( ثالثاً ) ثقة الدول البلقانية المتحالفة بمساعدة روسيا التي يهملها اضعاف الدولة العثمانية وتلاشيها حتى يتم لها احتلال الاستانة بنفسها أو على الأقل بواسطة دولة من الدول البلقانية ( رابعاً ) استمرار ضعف الدولة والفوضى حتى بعد اعادة العمل بالدستور كانت للحرب البلقانية مقدمات ونذر فقد اعتدى الجيليون على الاراضي التركية

فقادر المعتمد التركي شتيه عاصمة الجبل وقامت المذابح في برانه وكوشانا على ساق  
 وقدم كما أن ذبح بعض البلغارين في أشتيب الهب البلغارين في بلغاريا غيظاً وحنقاً  
 وطالبوا حكومتهم باعلان الحرب وكان منح البانيا الاستقلال الاداري مقوضاً لدعام  
 اطاع دول البلقان الاربع في البانيا وقد زعمت صربيا أن تركيا سلبتها بعض ذخائر  
 حربية وزعم اليونان ان الترك اعتدوا على سفينة في مياه ساموس كما ان بلغاريا فضلاً  
 عن شكواها من المذابح رأت في خركات الجنود التركية في ترافيا تهديداً لها . وقد  
 أرسل الكونت برختولد مذكرة الى الدول العظمى يشير عليها فيها بنصح تركيا بمنح  
 ولايتها نظام الحكم اللامركزي وبنصح الدول البلقانية بالاعتدال والصر . على أن  
 سمي برختولد كان على غير جدوى وكان لا يرضي دول البلقان غير تحكيم  
 السيف والمدفع

وليس من المعروف الى الآن سر تأليف الاتحاد البلقاني ولا من سمي فيه  
 وازاحج أنه داهية اليونان فزيلوس الكريتي . ومما يعد من قبيل حسن الطالع  
 للبلقانيين وسوء الحظ للعثمانيين ان ولاية الامور في دول البلقان كانوا اذذاك من الدهاة  
 الخاذقين الاذكياء وقد تمت المفاوضات وأبرمت المحالفة وهي سر من الاسرار  
 المسكوتة عن الترك والاوربيين أيضاً وعبأت الدول البلقانية جيوشها في حين كانت  
 تطالب بتطبيق مادة ٢٣ من عهدة برلين فاجابت تركيا أنها عازمة عزمها كيداً على  
 تنفيذ قانون ١٨٨٠ الخاص باصلاح الولايات . فهزت الدول البلقانية كنفها احتقاراً  
 ونصحتها النمسا وروسيا بالاعتدال وهددتها ببقاء الخريطة على ما هي حتى بعد  
 نهاية الحرب في صالحهم فلم ترعو ولم تسمع لأنها كانت لا تريد غير الحرب كما قدمنا .  
 ففي ٨ اكتوبر أعلن الجبل الاسود الحرب وأطلق الامير نقولا أول رصاصة في  
 الحرب البلقانية . وتوالى سقوط البلاد في أيدي الجبلين وتقدمت جيوشهم في سنجق  
 نوفي بازار واستولت على جملة مدن فيه - كل ذلك ولم تكن بقية دول التحالف قد  
 عاضدت الجبلين بعد . وفي ١٣ اكتوبر أرسلت بلغاريا وصربيا واليونان الى النمسا  
 وروسيا وتركيا خطابات تكاد تكون ذات معنى واحد وفيها طلب الاستقلال الداخلي  
 التام للولايات التركية الاوربية وان تكون الحدود بين تلك الولايات وفق الجنسيات  
 القاطنة بها وان تكون حكام الولايات من السويسريين أو البلجيكين وان تكون  
 للولايات مجالس نيابية وان تنظم الجندرية ويكون التعليم حراً ولكل اقليم جنود خاصة

به (مليشيا) وان يكون الاصلاح بارشاد لجان مؤلفة من مسلمين ونصارى على التساوي والاشراف الاعلى ليس فقط لسفراء الدول العظمى بل لندوبي دول البلقان في الاستانة هذا فضلاً عن وجوب تمریح الجيش العثماني ! فلم يسع الحكومة التركية الا رفض هذه المطالب طبعاً واستدعت معتمديها من بلغراد وصوفيا واعلنت الحرب على صربيا وبلغاريا في ١٧ اكتوبر . وفي اليوم التالي اعلنت اليونان الحرب على تركيا وكان فزيبوس قد قبل في مجلس النواب اليوناني نواباً عن كريت قبل ذلك باربعة ايام وابتدأت الحرب البلقانية فعلاً وكان كثير من الناس يصغر شأن الدول البلقانية



خريطة الاماني البلغارية

خريطة الاماني الصربية

وبشفق عليهم من انتقام الجيش العثماني الباسل . على ان اياماً قليلة مضت وظهر ان البلقانيين كانوا على استعداد عظيم وان الاتراك العثمانيين قد خدعوا انفسهم وخذعوا العالم وغموا الاصدقاء واشتموا الاعداء فقد سارت الجيوش البلقانية وفي ركبها النصر وتقدمت يحدوها الظفر في كل مكان ونداعت القوة العثمانية في اوربا كما يتداعى بيت اقيم من الورق او قصر بني على الرمال . وكان احسن ما افاد البلقانيين نظام مستتب دقيق ووطنية حارة وثابة وسرعان ما استولى البلغار يون على مصطفى باشا كما اتهم استولوا على كرك كليسا في ٢٤ اكتوبر ذلك المسكان الذي زعم معلم الجيش التركي ون درغولتز الالمانى انه يتمتع على اقوى جيش بروسي ثلاثة اشهر كاملة . اما اليونان

فاحتلوا جملة مدن في مقدونيا الجنوبية وايبروس واحتل الاسطول اليوناني جملة جزائر - فضلاً عن جزيرتي ايكاريا وساموس اللتين رفعنا العلم اليوناني منذ الحرب الطرابلسية - كما انه ( أي الاسطول ) رفع علم اليونان على شبه جزيرة جبل أنوس المقدس ومنع الاسطول التركي من مبارحة الدردنيل والنقالات العثمانية من اجتياز بحر الارخبيل وأرسلت كريت امداداً كثيرة . أما الصربون فقد أمعنوا في بلاد صربيا القديمة واعترضهم الالبانيون الذين استعمروها منذ عهدة برلين وقتلواهم عليها قتالا شديداً ثم انتهى الامر بانتصار الصربين في موقعة كومونوفو الفاصلة وسلمت لهم البلد تلو الاخرى مما له ذكر وأهمية في التاريخ الصربي القديم . وفي ١٢٦ أكتوبر تحقق حلم الصربين ونالوا مناهم بدخول ولي عهد ملكهم مدينة أسكوب حيث توج ملكهم اسطفان دوشان سنة ١٣٤٦ امبراطوراً عظيماً وتم انتصار الصربين باخذ برشتينا وبرزرن ثم بسقوط مناستر . وكان البلغار يون في غضون ذلك وفي ميدان لولوبرغاس من أعمال ترافيه يجارون جيشاً تركياً آخر خائراً جائماً مكسور الحاطر قاتلوه خمسة أيام بلياليها ثم تعقبوه الى خطوط شاطلجة . وفي ٨ نوفمبر سلمت سلانيك لولي عهد اليونان بعد أن ظلت في قبضة الترك ٤٨٢ عاماً

هنا لا بد من وقفة يرثي فيها القلم دولة السيف . دولة تدول وعز يزول . ابن انتم يا غطارفة الاناضول وليوث آل عثمان وأبطال الترك الاشواس ؟ ماذا دهاكم ؟ ماذا أصابكم ؟ أكذا تكون مصارع الدول ؟ أتدعي البعوضة مقلة الاسد ، وقتنحم الجرد العربن ؟ بالامس صال الاسم العثماني وطاول السما . كين أيام كان سليمان لا يكاد يسمع باقليم حتى تشبهه نفسه ولا تكاد تشتهيه نفسه حتى نتجتاحه أفراسه والسعد خادم والدهر يرتجف وأروبا بمخا فبرها من رهبة الملك العظيم في هلع . واليوم البلغار يون على حدود شاطلجة ايا للعار يا أعقاب عثمان ونسل بايزيد وأولاد محمد الفاتح وأخلاف سليمان اتسع الملك عليكم فلم تحسنوا سياسته فطمع فيكم من كانوا بالامس من جملة مواليكم

وكذلك تم في بضعة أسابيع اتقاص تركية أوروبا من كل جانب ولم يبق منها غير مدينة أدرنه واشقودره ويانيا وهي مدن قاومت البلغارين والجليبين واليونانيين وغير لسان غاليبولي وشبه الجزيرة المتمد من خطوط شاطلجة الى زقاق البوسفور وقد رأت دول أوروبا تلقاء انتصار البلغانيين الباهر أن تعدل عن قرارها السابق أي المحافظة

على خريطة البلقان - ولا غرابة فأوربا تكره الاتراك

قال المستر اسكويت رئيس الوزارة الانكليزية من خطبة له في ٩ نوفمبر : لا بد من تعديل خريطة أوربا الشرقية اذ لا يمكن ان نحرم المنصورين من ثمرة انتصارهم ذلك الانتصار الذي كلفهم ثمناً باهظاً . ولما رأيت النساء ان اسديلاه الصربيين والجيليين على سنجق نوفي بازار قد حال دون وصولها الى بحر ادرينايك منعت صربيا من اتخاذ مرفأ لها على ذلك البحر وجعلت من نفسها بمعاوضة ايطاليا نصيراً لانشاء البانيا المستقلة التي نادى بها اسماعيل كمال بك في فالونا واعترف بذلك سفراء الدول العظمى في لندن

ثم دخل الصربيون دورازو واتصر البلقاريون في ديموتكا وفي ٣ ديسمبر امضي عقد هدنة في شاطلجة بين تركيا والدول البلقانية السلافية . فاما اليونان فواصلت أعمالها العدائية . على ان مندوبي الدول المتحاربة الخمس اجتمعوا في ١٦ ديسمبر في قصر سانت جيمس كما ان السير ادزرد غراي تصدر مجلساً في الوقت نفسه بضم سفراء الدول العظمى

ونصحت الدول العظمى للباب العالي بالنازل عن أدرنه للبلقانيين وترك مسألة جزر البحر لغاية الدول العظمى . وفيما كان المجلس الاستشاري الاكبر منعقداً في الاستانة وعلى وشك قبول رأي الدول العظمى ظهرت ثورة بزعامة انور بطل الدستور وحرر طرابلس فارغم كامل باشا على الاستغفاء وقتل ناظم باشا القائد العام علناً وفي رابعة النهار ومجلس الوكلاء منعقد وعادت السلطة الى جمعية الاتحاد والترقي . وبعد قليل أي في التاسع والعشرين من يناير غادر مندوبو دول البلقان مدينة لندرة واعلنوا انتهاء الهدنة وعودة الاعمال الحربية . على أن الهدنة انتهت فعلاً في ٣ فبراير وعادت الحرب باهوالها وفظائعها وكان اليونان في غضون ذلك قد تمكنوا باسطولهم من قهر الاسطول التركي خارج الدردنيل واستولوا على مدينة بارغا تلك التي أسفوا على تركها للاتراك منذ ٩٤ سنة اسفاً عظيماً وعاد البلقاريون الى القتال حول أدرنه وفي شاطلجة وشبه جزيرة غليبولي وعاد الصربيون والجيليون الى مهاجمة اشقودره وزادت خسائر الطرفين المتحاربين وحاول أنور بك ان ينزل بقوة عظيمة وراء البلقاريين فاحقق سعيماً وخسر كثيراً ثم سقطت أدرنه في ٢٦ مارس بعد دفاع طويل باسل مجيد وبعد ان كتب حمانها الابطال صحيفة مجد خالد من صحف تاريخ الجندية العثمانية صحيفة تشهد



لقائدهم شكري باشا الهمام بانه من طراز أولئك الابطال الاشاوس الذين اكتسبوا  
ببسالتهم وحذقهم ثقة امتهم واحترام العالم اجمع . وكانت الجيوش اليونانية قد شددت  
( بقيادة ولي العهد وهو الملك قسطنطين الحالي ) الحصار على يانيا وألحت عليها  
بلمدافع تحت تأثير برد قارس وجليد متساقط . وفي ٥ مارس سلمت حاميتها الباسلة  
بقيادة وهيب بك بعد دفاع باسل مجيد

ولما رأَت الدول ان يانيا وادرنه قد صارتا الى البلقانيين وان الجيوش المرابطة  
حولها قد تستخدم في الاستيلاء على الآستانة وان البلغاريين قد يجدون في فتحها



خريطة الاماني الرومانية

خريطة الاماني اليونانية

فتقوم المشاكل العظيمة بسبب الاختلاف على امتلاك تلك العاصمة الثمينة نصحت  
للمتحارين بتوقيف الاعمال الحربية وافهمت البلغاريين ان كل دم يراق يكون بعد  
ذلك عبثاً وانها لا تسمح باقتراب احد من مدينة البوسفور وجعل خط التحديد  
بين الاملاك البلغارية والاملاك العثمانية من اينوس على بحر ايجه الى ميديا على البحر  
الاسود وان تكون ادرنه للبلغاريين . فقبل الاتراك ذلك مكرهين ورضوا باستقلال  
البانيا والتنازل عن كريت لليونان وتفويض امر الجزر للدول العظمى . وقررت  
الدول ان يعقد مؤتمر مالي في باريس بنظر في امر الغرامة المالية التي طلبها الاحلاف

وفي مقدار الدين الذي يجب عليهم ايفاؤه من الديون العثمانية بعد اخذ ما اخذوا من الولايات العثمانية الاوربية . ولما ذاعت شروط الصلح رأى بعض العثمانيين ان وزارة محمود شوكت باشا رضيت باثقل من الشروط التي رضيت بها وزارة كامل باشا وزاد الاستياء وصرع شوكت فتولى الصدارة الامير سعيد حليم باشا وكان الصلح الذي ابرم في ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ بين تركيا ودول البلقان ختام مأساة او فاجعة من فاجعات التاريخ العثماني وبه طويت صحيفة ذل وعار لا ينساها العثمانيون ابد الدهر ثم قام الخلاف فيما بين البلقانيين<sup>(١)</sup> فطلبت بلغاريا من اليونان ان تجلو عن سلانيك وتسلمها اليها فرفضت اليونان هذا الطلب وقالت انها لا تسلم سلانيك الا بالقوة كما ان سربيا احتلت مدناً تطمع فيها بلغاريا وزعمت صربيا انها اضطرت الى الرضى باستقلال البانيا لاسباب دولية وانها قامت باكثر مما يجب عليها في قتال العثمانيين وتحرشت رومانيا ببلغاريا وتهديدها اذا نشبت حرب بينها وبين حلفائها بالامس فلم تبعاً بلغاريا بالتهديد مع احاطة الاعداء بها من كل مكان وأقدمت على محاربتهم جميعاً ثم طلبت الصلح في ٣٠ يوليو وعقد مؤتمر بخارست الذي وضعت بموجبه خريطة البلقان على ما نعرفها قبل نشوب الحرب الاوربية العظمى

(١) انتهزت تركيا فرصة هذا الخلاف وزحفت جيوشها على ترانبيه وادرنه وفازت باسترجاع ادرنه وتعديل حدود ترانبيه تعديلاً لا بأس به

## خاتمة

## تركيا والحرب العظمى

## المسئلة الشرقية ومعاهدة سيفر

الاقدام على تدوين الحوادث مع قرب وقوعها ومن غير تفهم أسبابها المجهولة عمل ينبو عنه ذوق المؤرخ الذي يعرف لعملة قيمة . والحرب الكبرى حادثة على جلاله قدرها واتساع نطاقها وتعدد من اشترك فيها وخطورة نتائجها وروعة مشاهداتها وتنوع ضحاياها وبالغ فتك آلتها الجهنمية قربية عهد بنا ولجزئيات حوادثها من الاسباب المكتومة والعلل المجهولة والظروف الخفية والدواعي الغامضة ما يجعل عمل المؤرخ المتسرع عملاً محفوفاً بالمخاطر مقروناً بالخطأ والخطل . ونحن نربأ بانفسنا عن أن نقع فيما تنهى غيرنا عنه وما قصدنا في هذه العجالة الا الفاه نظرة عامة على تأثير تلك الكارثة الكبرى في المسئلة الشرقية - موضوع كتابنا

وأول ما يلاحظ انه لم يكن في مقدور الدولة العلية مطلقاً المحافظة على حيديتها . وكان لا بد لها عاجلاً أو آجلاً من دخول الحرب - كما حصل - مع احد الفريقين المتحاربين لان موقعها وسط القارات وعلى أهم بحور وبوغازات العالم مع ضعفها ضعفاً يقعد بها عن دعم الرأي الذي تراه بالقوة ثم مجاورتها لروسيا واملاك انكلترة وتأثرها بالسياسة الالمانية وخضوعها لالمانيا عسكرياً واقتصادياً كل ذلك كان يدفعها حتماً الى دخول غمار الحرب مضطرة لا مختارة وقد يركب المضطر الصعب من الامور وهو عالم بركوبه

أما وهو مسلم بانه كان لا بد من دخولها الحرب - وقد دخلت فعلاً - فقد وجب علينا ان نلم باسباب دخولها الى جانب المانيا دون انكلترة : ذكر الذاكرون ان المانيا كانت قد ارتبطت قبل نشوب الحرب الكبرى مع تركيا برباط معاهدة تقضي بدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا فيما لو نشبت حرب بينها وبين احدى الدول . وانه كان لا بد لتركيا من احترام العهد الذي ارتبطت به خصوصاً وقد كان للامان السيطرة على دوائر الاستانة العسكرية والسياسية . وذكر آخرون ان الالمان بذلوا رشوة لبعض الخونة من رجال الدولة وذوي التحكم في الرأي العام من أرباب الجرائد

حتى حملوا الناس على التشيع لمانيا والنقرب منها ثم الانضمام لها . وقال آخرون  
مطلعون على حقائق الاخبار ان الترك غاظهم من الانكليز وضع يدهم على البارجتين  
العثمانيين الكبيرتين اللتين أوصت حكومة الترك معامل انكلترة على صنعها فلما  
اكتملتا وتسمت احدهما « رشادية » والاخرى « السلطان عثمان » نشبت الحرب  
فاخذتهما انكلترا دون ان يتدورها تركيا بشر او تقابلها بمكروه فاسرع الالمان  
وعوضوا الترك خيراً منها بارسال « جون » و « برسلو » مع اقراض مال وتقديم  
سلاح وذخيرة وارسال ضباط للتعليم والارشاد والاشراف والهيمنة وتقوية الحصون .  
فاحسان المانيا حيث اساءت انكلترة كان له أكبر أثر في تكييف سياسة تركيا قبيل  
الحرب . هذا الى ان موقف انكلترة في حرب طرابلس وحرب البلقان لم يكن  
موقف صديق معاضد بل موقف عدو شامت وكاره معاند . والى ان المانيا كانت  
قد اصطنعت في تركيا أصدقاء يجولونها ويحترمونها ويعنون لها ويأتمرون بأمرها مثل  
أنور وبعض شيعته من حزب الاتحاد والترقي ممن كانوا يبرهنون على حسن نية المانيا  
وخبث طوية انكلترة بما قدمنا من البراهين

وقد كان مفتح الحرب في ٢٧ و ٢٩ اكتوبر سنة ١٩١٤ وفيها اعتدت بعض  
السفن العثمانية على السفن والسواحل الروسية في البحر الاسود . هذه رواية الحلفاء .  
ورواية الاتراك انه قام لديهم الف دليل ودليل على أن السفن الروسية كانت تحمل  
الالغام لبثها في مياه البوسفور وانها كانت على نية ضرب السواحل العثمانية . فلما  
رأت انكلترة من تركيا ذلك أعلنتها الحرب في ٥ نوفمبر وتلا ذلك أمر ملكي  
بريطاني بضم جزيرة قبرص ثم دفع الروسيون الجيش التركي الذي سارع الى حربهم  
في القوقاز وتعقبوه الى الاناضول الشرقية ( من نوفمبر الى ديسمبر سنة ١٩١٤ )  
وارسل الانكليز جيشاً واسطولا على العراق ( لافساد خطة الاتراك التي املتها  
عليهم المانيا لتهديد طريق الهند ) وبعد قتال طويل الامد عظيم النفقة كبير الجهد  
والمشقة وبعد أن سلم في ٢٨ ابريل في كوت الامارة الجزرال تونزند و ١٣ الفاً من  
جنده اتيح للانكليز بعد امداد الجيش ومغالبة العوائق من التقدم بقيادة الجزرال  
السير استانلي مود واجلاء الارك عن العراق بعد أن استولوا على بغداد في ١١  
مارس سنة ١٩١٧ وكسروا جيش احمد بك كسرة شنيعة . هذا الى أن جيشاً  
انكليزياً آخر صد الاتراك عن عبور قناة السويس بين ٢ و ٤ فبراير سنة ١٩١٥

وتعقبهم في شبه جزيرة سيناء ثم غزا فلسطين . ففي ٣١ سبتمبر سنة ١٩١٧ احتل بير سبع وفي ١١ ديسمبر دخل بيت المقدس وسار منها شمالاً يعضده الجيش العربي بقيادة سمو الامير فيصل يفتح البلاد ويتسلم المدن ويأسر الاسرى الكثيرة ( بلغت جملة الاسرى العثمانيين الذين وقعوا لجيش الجنرال اللبي لغاية ٢٥ سبتمبر سنة ١٩١٨ ٤٠ الفاً وجملة المدافع ٢٦٥ ) والجيش العثماني متقهقر وقد التوى عليه الامر وفقد منه النظام وسدت في وجهه المنافذ . فالروسيون من الشمال والانكليز من الشرق والعرب والانكليز من الجنوب والغرب واساطيل الحلفاء متحكة في السواحل . هذا الى فساد الخطط الحربية وعداوة العرب وعوز القوات وقلة الذخائر وندرة طرق المواصلات كالكسك الحديدية خصوصاً ( استفتح العرب حربهم مع الترك بتدمير سكة حديد الحجاز ) وتفرق القلوب واختلاف الاهواء وتكاثر الاعداء على المانيا والنمسا فلم يكن بمقدورهما دفع الاعداء عن بلادهم فكيف يبلاد غيرهم . ذلك كان حال الجيش العثماني حينما نال الاعداء من تركيا في اربع سنين ما لم يتم لهم الحصول عليه في اربعة قرون

وقد جرى الاتراك قبيل الحرب ( ١٩١٣ ) على سياسة قبيحة فقرت منهم قلوب العرب وغيرهم سياسة دعوها « بني توران » أي توران الجديد ويمكن تعريفها بانها حركة برادبها السير في جهة القومية التركية والابتعاد عن الاسلام وأغراضها الفصل بين القومية والدين وترقية الروح العسكرية وانشاء علاقات مع مسلمي ايران وركستان وجنوب روسيا ونحرير اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية . وقد كان اولى بالترك أن يجمعوا القلوب على محبتهم بمنح كل فريق نوعاً من الحكم الذاتي المعروف بالحكم اللامركزي وتاليف نظام سياسي تصير به السلطنة العثمانية أشبه الاشياء بجمهورية الولايات المتحدة الاميركية أو الامبراطورية الالمانية

وقد خسرت الاتراك بدخولهم الحرب الى جانب المانيا خسائر مادية جسيمة ( عبأوا ١٦٠٠٠٠٠ رجل مات منهم ٣٠٠٠٠٠٠ وجرح ٥٧٠٠٠٠٠ وتاه أو أسر ١٣٠٠٠٠٠ فالمجوع مليون رجل والحسارة ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ) واقتطعت منهم أقاليم واستقلت امصار فقد استقل الارمن بالاناضول الشرقية والعرب بالحجاز بزعامه الملك الشريف حسين وصار أمر الشام ولبنان الى فرنسا والعراق كله

وفلسطين الى انكلترة ومحيت سيادة الترك على القطر المصري منذ ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٤

أما خسائرهم الادبية فتحصص في خروج الحجاز ومكة والمدينة والحرمين الشريفين الذين كثر ما اقتخر سلاطين آل عثمان بين ملوك الاسلام بالقوامة عليهما هذا فضلاً عن ضياع فلسطين وبيت المقدس اللذين تحكّم فيهما الجنس التركي رغم أنف اوروبا من العصور الوسطى الى ان دخلها الجنرال اللنبي ظهر ١١ ديسمبر سنة ١٩١٧ وقد حلت المسئلة الشرقية حلاً نهائياً تاماً بدعوة الاتراك الى امضاء شروط معاهدة سيفر في الساعة الرابعة والدقيقة ١٠ من يوم ١٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ اذ قررت هذه المعاهدة فيما قررت أن لا يكون مفتاح البوغازين بيد الاتراك وان تكون جيوشهم وماليتهم تحت رقابة اوروبا وان يسلموا بخروج ما خرج من أيديهم من الامم والاقاليم والبقاع وأن لا يكون لهم غير الاناضول التركي مع بقاء الخليفة في الاستانة مرهوناً بحسن سلوك تركيا في المستقبل

غير أن الله سبحانه وتعالى أراد أن لا يكون حل المسئلة الشرقية من حوادث هذا الجيل ونظر الى الاتراك نظرة عطف وحنان فحدث من الحوادث قبيل وبعد امضاء معاهدة سيفر ما اذن بتأخير حل المسئلة الشرقية واحياء آمال الامة التركية وبيان ذلك - وهو من أعجب ما رواه التاريخ - ان روسيا التي جددت في اضفاف تركيا واقطاع أرضها والاعتداء عليها قروناً عديدة وكان حل المسئلة الشرقية مرهوناً بها صارت فريسة ثورة اجماعية شيوعية اثارها قوم يعرفون بالبلشفيين يدنون بحرب أبواب الاموال والاستماريين ونصرة العمال « وصعاليك العالم » فهؤلاء الشيوعيون بعد ان تم لهم استلام مقاليد الاحكام ففوضوا ايديهم مما ارتبطت به الحكومة القيصرية وحكومة المعتدلين التي قامت في أثرها برئاسة كرنسكي وانقلبوا على الحلفاء ثم ناصروا الاتراك الاناضول الذين هبوا لتعديل معاهدة سيفر بقوة السلاح . فروسيا التي جددت قديماً في حل المسئلة الشرقية هي الدولة الاوربية الوحيدة التي تعضد الترك في الغاء معاهدة سيفر اعتقاداً منها بان معاهدة سيفر معاهدة املتها

المبادئ الاستعمارية لاجراج ارض ومياه تركية من الحكم التركي وخير ما نختم به هذه العجالة كلمة عن النهضة التركية الاناضولية التي قام بها مصطفى كمال باشا لنقض معاهدة سيفر

« لما استقر مصطفى كمال في الاناضول أدرك وجوب لم شعته وتنظيم جيشه فعمل على ذلك وظل يرقب الحوادث في الاستانة ليرى ما تؤول اليه الحال . فلما تألفت وزارة المشير عزت باشا الاولى عقب الهدنة قصد الاستانة وأقام فيها مدة وجيزة ثم عين مفتشاً لجيش الاناضول . فوافق هذا التعيين هو ي من نفسه اذ أتاح له أمام ما كان قد شرع فيه . فبرح الاستانة واتخذ ارضروم مقراً له وأخذ يبذل عناية في تنظيم الجيش وأنشأ مستودعاً للأسلحة وترسانة لاصلاح ما تعطل منها وضم اليه نخبة من الضباط العثمانيين الذين بقوا في الاناضول بعد عقد الهدنة أو جاؤوا من الاستانة بعد احتلال الحلفاء لها

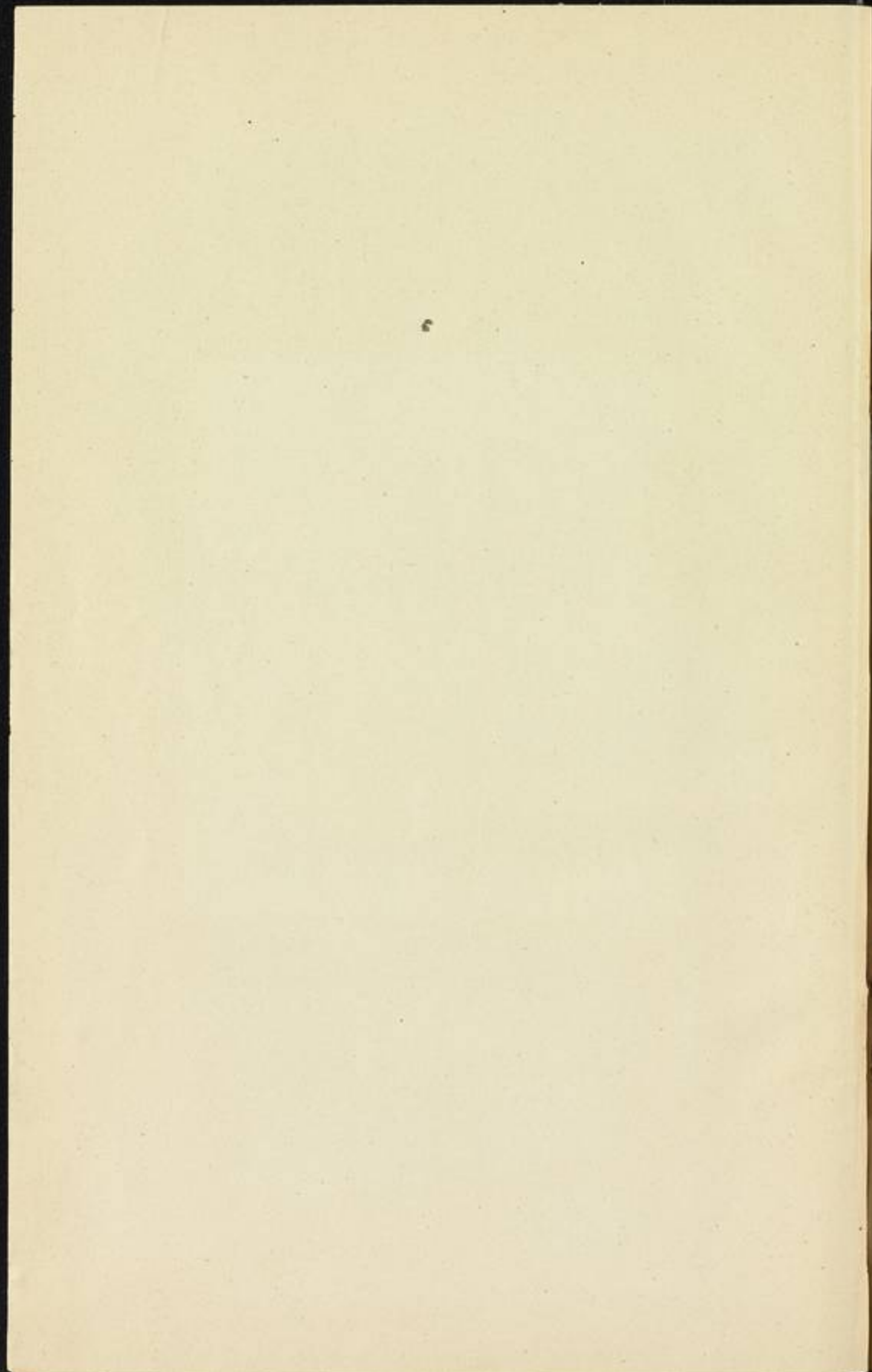
« ثم ان الحلفاء لم يلبثوا ان حلوا المجلسين النيابيين في الاستانة واتخذوا سياسة الضغط والعنف مع الازراك فكان من جراء ذلك ان هجر فروق صفوة رجالهم ومفكرهم والنقوا حول مصطفى كمال فاشتد بهم ساعده والى في انقراء حكومة وطنية تمثل الشعب التركي تمثيلاً حقيقياً وتعبر عن أمانيه ورغائبه بخلاف حكومة الاستانة التي كانت صورة لا حياة لها . وقد حدد المجلس العمومي في انقراء الخطة التي يجب على مصطفى كمال ورجاله اتباعها لتخليص الشعب التركي واسترداد كرامته في جلسة عقدت في ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠ وهي تلخص في استمارة الامة التركية في الدفاع عن حقوقها واجلاء الفرنسيين واليونان عن الاراضي التركية والغاء رقابة الحلفاء المالية والحربية »  
« ولما رأى مصطفى كمال ما يكتنفه من الخطر وهو يقاوم وحده عدة دول كبيرة رضي أن يستعين بحكومة روسيا السوفيتية فعقد محالفة مع نين لعلها كانت من أهم الاسباب التي اضطرت الحلفاء الى الرجوع عن خططهم الاولى تجاه الشعب التركي »  
« وقد بذل مصطفى كمال جهده لتحقيق الاماني التركية فما برح النصر حليفه يزيد قوة ويزيد مركزه توطيداً حتى اضطرت حكومة الاستانة الى الاعتراف به وتسليمه الزعامة الفعلية في ما دار مع الحلفاء من المفاوضات

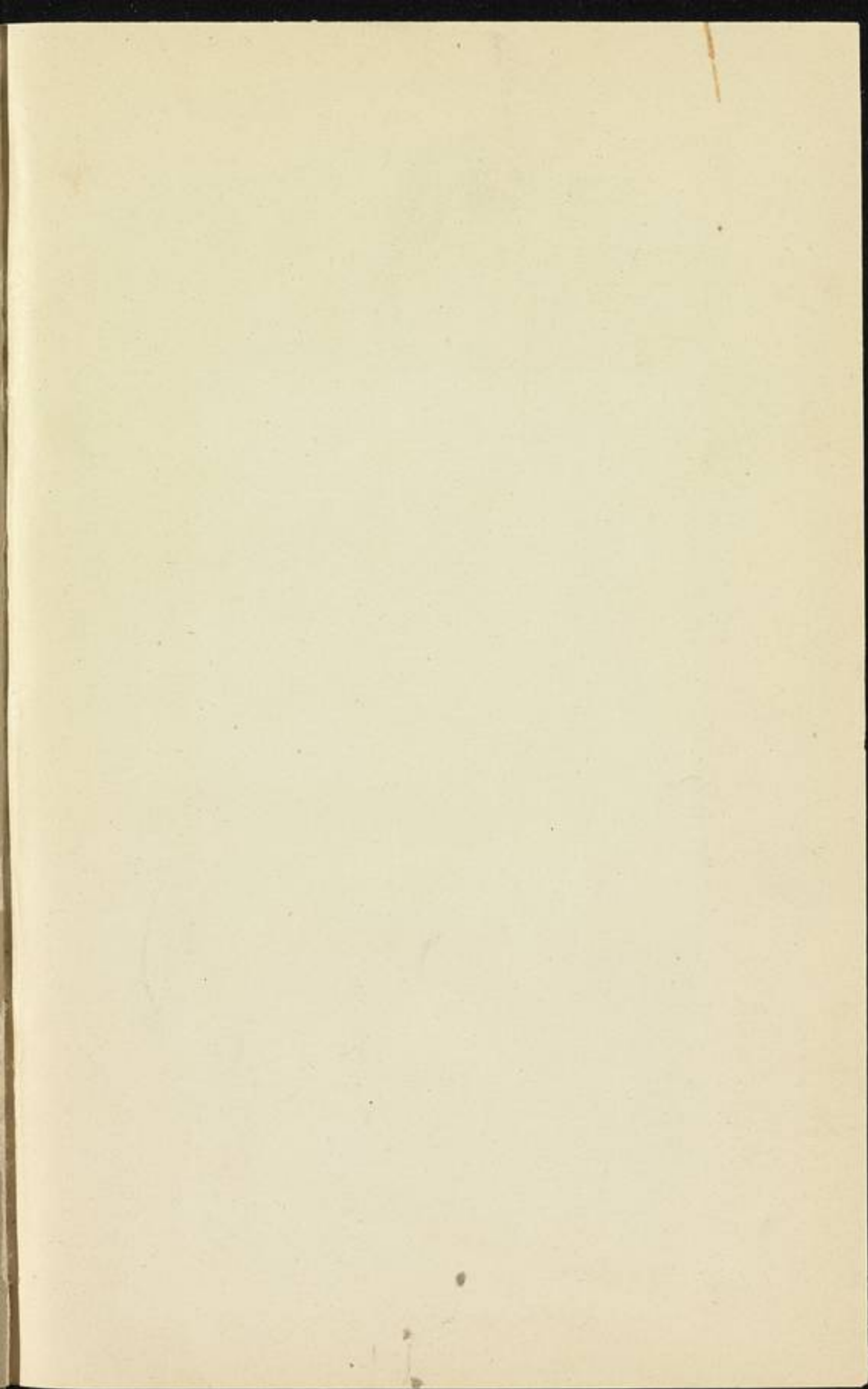
« وقد أدرك الحلفاء - ولولا قيام مصطفى كمال ما ادركوا - ان معاهدة سيفر لم تكن قائمة على أسس العدل والانصاف فارادوا تنقيحها فمقدوا مؤتمراً في لندن واقترحوا على تركيا واليونان اقتراحات معينة ولكن اليونان ابوا العمل بها وارادوا تحكيم السيف كما يعلم القراء » ( عن الهلال )

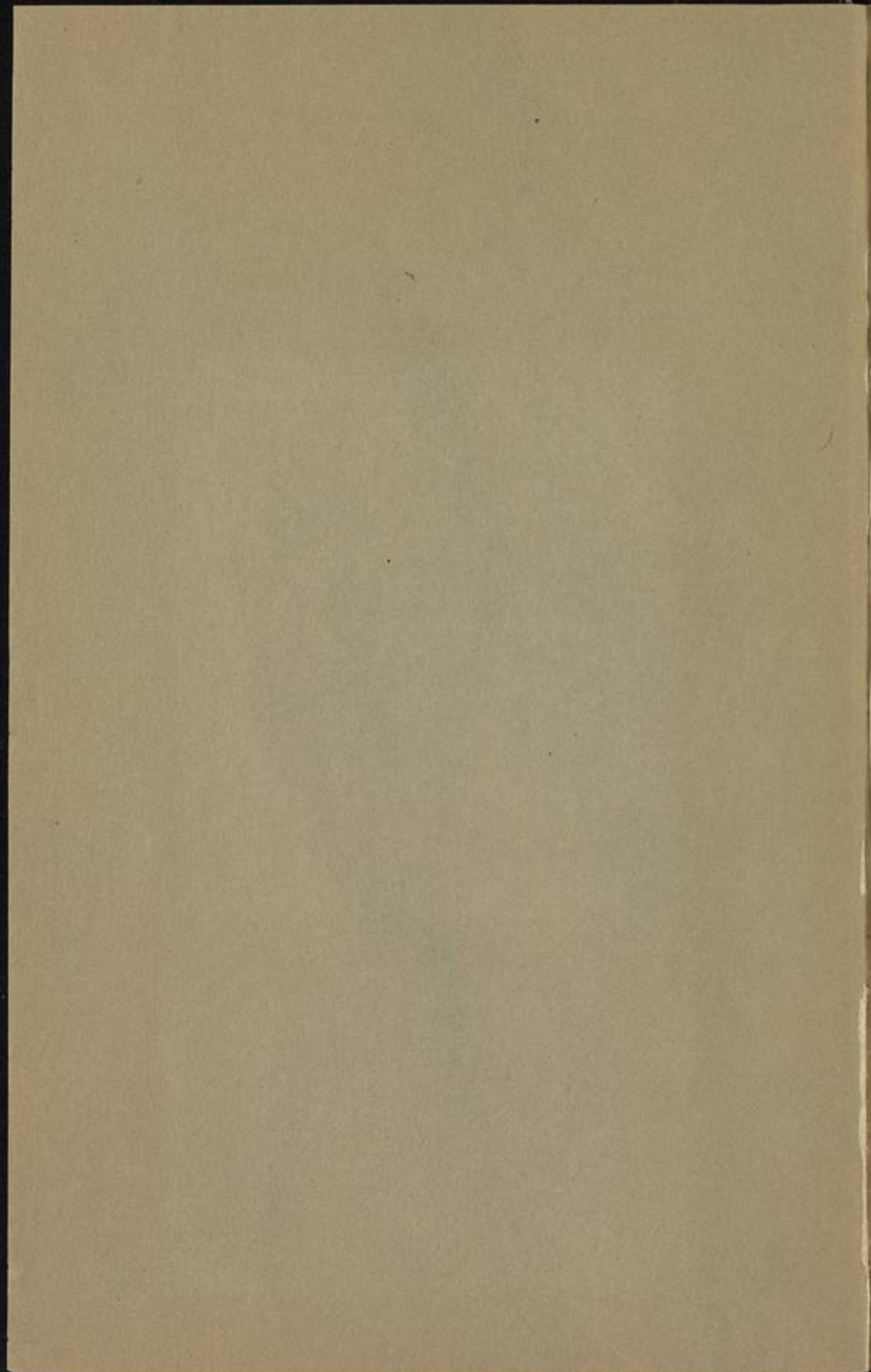
## فهرس الكتاب

	صفحة
مقدمة	٣
كلمة عامة في المسئلة الشرقية :	٤
ما هي المسئلة الشرقية	
أسباب ضعف الدولة العثمانية	
موجز تاريخ تركيا	٢٥
الفصل الاول : دور الندلي والأنحطاط	٢٩
الفصل الثاني : سلطة الوزراء	٣٧
الفصل الثالث : نهضة روسيا وحروبها مع الدولة - ظهور المسئلة الشرقية وتطورها	٥١
الفصل الرابع : المسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر	٦٤
الفصل الخامس : الانقلاب العثماني	٨٤
الفصل السادس : المسئلة الشرقية واستقلال العناصر	١٠٢
خاتمة : تركيا والحرب العظمى	١١٥
المسئلة الشرقية ومعاهدة سيفر	









1870

1870

DATE DUE

DATE DUE

GL JAN 25 1980

GL FEB 21 1980

MAR 24 1980

APR 21 1980

UE

DUE

02842149

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE.  
A TWO DOLLAR FINE WILL  
BE CHARGED FOR THE LOSS  
OR MUTILATION OF THIS CARD

ENTRY

31 28 19 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80  
PRINTED IN U.S.A.

02842149

D 371  
.L3

MAR 11 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69442738

D371 .L3

Tarikh al-masalah al